الفصل الثاني

توظيف المبالغة للتراكيب الفنية

(١) الأساليب الإنشائية " الطلبية " .
(٢) الأساليب الإنشائية " غير الطلبية " .
(٣) الأساليب الخبرية .

تمهيد :

أسلوب القرآن الكريم له تميُّزه ، وتفرُّده ، ومن ثمَّ انماز هذا النظم القرآني عن النتاج الأدبي البشري في مفرداته ، وتراكيبه ، ويطلق الأسلوب في لغة العرب على دلالاتٍ مختلفة (١) بَيْد أن مفهومه يتبلور ــ اصطلاحيًا ــ في الأداء اللفظي المنبثق عن قوة البيان ، الناجم عن جودة الطبع والتمرُّس بالكلام البليغ شريطة أن يُتوخَّى في إبداعه الحسُّ الوجداني والمغزى الفكري ، والملمح التصويري ملتمسًا في ذلك أسباب الصحة والوضوح ، وأسس الجمال قصدًا للإفهام والتأثير والإقناع (٢) .

ولا غرو أن " عبد القاهر" بحديثه عن النظم (٣) أسهم في إبداء الأداء الجمالي للتركيب ؛ إذ هي تنبني على حُسن الاختيار ، وجودة التفويف والوشي ، هذا بالإضافة إلى التركيز على إعمال الفكر والروية ، وتحريك الخاطر واستنفار الهمة ، ونَاقشَ قبل أن يقرها العناصر الأخرى التي يمكن أن تُسهم في بناء جمال الأسلوب ، وهي اللفظ والمعنى والحرف والإيقاع العام والغرابة والخفة ، ولقد نفى أن تكون هذه العناصر وحدها هي سِرُّ الأسلوب القرآني ؛ لأنها عناصر مألوفة متداولة قبل نزول القرآن واهتدى إلى أن الجديد في الجمال القرآني هو النظم (٤) .

وسرُّ القرآن أنه ينماز في طرائقه وخصائصه عمَّا تمرَّس به الناس من فنون الأدب وما ألفوه من أساليب اللغة ، إذ لا طاقة للخلق ــ كل الخلق ــ أن يأتوا بسورة من مثله أو يُحيطوا بكنهه ، أو يدركوا سرَّه ولو

---

(١) في اللسان : " يقال للسطر من النخيل : أسلوب . وكل طريقٍ مُمتدٍّ فهو أسلوب ، قال : والأسلوب : الطريق والوجه والمذهب ، يُقال : أنتم في أسلوب سُوء ، ويُجمع أساليب ، والأسلوب : الطريق تأخذ فيه والأسلوب (بالضم) الفن ، يُقال : أخذ فلان '' في أساليب من القول أي أفانين منه " لسان العرب مادة " س ، ل ، ب "

(٢) انظر في ذلك : الأسلوب للأستاذ أحمد الشايب ــ مكتبة النهضة المصرية ــ ط التاسعة ١٩٩٥م / ٤٤ ، ٥٢ ، ومن أسرار اللغة ــ د . إبراهيم أنيس ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ ط السابعة ١٩٩٤م / ٢٧٨ ، والأسلوبية والبيان العربي تأليف د . محمد عبد المنعم خفاجي ، د . محمد السعدي فرهود ، د . عبد العزيز شرف ــ الدار المصرية ــ ط الأولى ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م / ٧٠٥ .

(٣) انظر دلائل الإعجاز ــ عبد القاهر الجرجاني ــ تحقيق محمود محمد شاكر ــ مطبعة المدني بالقاهرة ــ دار المدني بجدة ــ ط الثالثة ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢م / ٣٦ ــ ٨٨ .

(٤) انظر دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث ــ د . أحمد درويش ــ دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ــ القاهرة ١٩٩٨م / ١٠٨ .

كـــان بعضهم لبعض ظهيرًا ، فهو كلام الله وتنزيله السماوي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل'' من حكيم حميد ﴿ وَلَوْ كان من عِـنْد غَـيْر الله لَوَجَـدُوا فـيه اخْـتِلافـًا كثيرًا ﴾ (١) وإليك بعض هذه الخصائص :

الخصيصة الأولى :

اتســاق القــرآن وائتلافــه فــي حــركاته وسكناته ، ومداته وغُنَّاته ، واتصــالاته ووقفاتــه اتســاقـًا عجيبًا ، وائتلافـًا رائعًا يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة عزَّ أن يصل إليها كلام بشر .

الخصيصة الثانية :

إصابته المعنى في يُسر للعامة والخاصة ، فأيًا كانت ثقافة القارئ فإنه مدرك جلاله ، ذائق حلاوته ، أدرك ذلك لا محالة وليس كذلك كلام البشر .

الخصيصة الثالثة :

أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معًا ، ويجمع الحق والجمال على السواء ويُحْدِثُ الحيوية والأريحيّة للروح والجسد دَفْعة واحدة .

الخصيصة الرابعة :

جودة سبك القرآن وإحكام سرده ، حيث بلغ من ترابط أجزائه وتضام كلماتــه وجملــهِ وآياته وسوره مبلغًا لا يُدانى هذا إضافة إلى تنوع مقاصده وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد .

الخصيصة الخامسة :

براعــته فــي تصــريف القول ، وثروته في أفانين الكلام حيث يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة ، بمقدرة فائقة ، تنقطع في حلبتها أنفاسُ الموهوبين من الفصحاء والبلغاء .

---

(١) النساء/ ٨٢

الخصيصة السادسة :

جمع القرآن بين الإجمال والبيان[1] ، تسمع الجملة منه فإذا هي بيِّنة'' مجملـــة'' فـــي آنٍ واحدٍ ، أما أنها بَيِّنة ؛ فلأنها واضحة المغزى وضوحًا يُـــريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة ، فإذا أنعمت النظر فيها لاحـــت مـــنها معانٍ جديدة كلها صحيح أومحتمل لأن يكون صحيحًا وكلما أنعمـــت فيها النظر زادتك من المعارف والأسرار ، بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد على حدِّ قول القائل :

يزيدُك وجهُهُ حُسْنـــًا ∴ إذا ما زدْتَـــه نَظـــرًا [2]

وأخـــيرًا بـــات مـــن المفيد أن أقدم إطلالةً موجزة عن طبيعة دراسة القدماء والمحدثين لمجمل التراكيب الفنية في القرآن الكريم ، إذ تناول القدماء " التراكيـــب " من خلال ما يُسمَّى بعلم المعاني [3] ، وهو واحد'' من فروع علـــوم الـــبلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، وثمَّ فارق'' زمني بين تـــناول المسائل التي تضمها مباحث هذا العلم على يد البلاغيين وبين إطلاق هذا المصطلح علىهذه المسائل ــ وتسميتها باسم علـــم المعاني .

---

(١) المجمـــل مالـــه دلالـــة غير واضحة ... والمبين مالا خفاء فيه لا ما وقع إليه السياق مثال الأول لفظ القـــرء ولفظ مختار ، وقوله تعالى : " إلا ما يتلى عليكم " المائدة / ١ لأن الأوَّل متردد بين الحيض والطهـــر ، والثانـــي بين الفاعل والمفعول والثالث مجهول معناه قبل نزول آية " حرمت عليكم الميتة " المـــائدة / ٣ والمُبين نحو قوله تعالى : " والسارق والسارقة فاقطعوا " المائدة / ٣٨ و قوله تعالـــى : "حرمت عليكم أمهاتكم " النساء/ ٢٣ .

(٢) انظـــر مناهل العرفان في علوم القرآن ــ محمد عبد العظيم الزرقاني ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٨٠م / ٣٠٢ ــ ٣٢٦ .

(٣) هـــو علم'' يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال " الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني تحقيق د . عبد القادر حسين ــ مكتبة الأداب ــ ٩٩٦م /٣٧ وقال السكاكي : علم المعانـــي : هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليُحترز بـــالوقوف عليها عن الخطـــأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره " مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوســـف بـــن أبي بكر محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـــ ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ــ ط الثانية ١٤١١ هـــ = ٩٩٠م /٩١

ومـــن المعلوم أن علم " البيان " يتعامل مع المفردات (وكيفية اهتزاز تطابقـــه المعجمـــي ، وتحرير الدال من مرجعه الوضعي ليُحلـــّق في إطار التشكيل البلاغي بكل احتمالاته من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز) [١] بينما يتعامل " علم المعاني " مع التراكيب وهي مدار المبحث للعمل على استخراج فنيات الأسلوب وجمالياته من خلال التوظيف الفني للتركيب، الذي يقول عنه د . منير سلطان (هو الحالة الخاصة التي يحياها هذا التركيب مع مجموعةٍ من التراكيب داخل منظومةٍ متناسقة ، هو : التوفيق بين خصائص التركيب ، واختيار المكان الذي يصلح له دون غيره ، التوظيف الفني : هو هذا التشكيل الدقيق المحسوب الذي يمنحه الفنان روحه وذوقه وكيانه ، التوظيف الفني : هـــو العمل الحقيقي للفنان ؛ لأنه ــ أولاً وأخيرًا ــ يتعامل مع كتلٍ خام لها مواصـــفاتها اللغويـــة المعـــروفة ، ومهمـــته أن يستغل كل هذه المواصفات والطاقات ويصبُّ منها تمثالاً فيه رقـــّة وفيه قـــُوة وله شخصية ويحمل في داخل داخله عِرقـــًا ينبض من عروق قلب هذا الفنان) [٢] .

وإن رُمْـــت مـــزيدًا مـــن الدقة ، ألفيتَ " المبالغة " تدور في فلك تلك التراكيـــب التي تنحصر تحت ما يعرف بـــ " الخبر والإنشاء " قال السيوطي عنهما (اعلم أن الحُذَّاق من النحاة وغيرهم وأهل البيان قاطبة على انحصار الكـــلام فـــيهما وأنـــه ليس له قسم'' ثالث . وادَّعى قوم'' أن أقسام الكـــلام عشـــرة : نـــداء ، ومسألة ، وأمر ، وتشفُّع ، وتعجُّـــب ، وقسم ، وشرط ، وشـــك ، واســـتفهام) [٣] وقد نشِب بين البلاغيين المحدثين جدال'' شديد'' حـــيال الأَوْلى منهما بالدخول في دائرة البلاغة ، والألصق بالتركيب الفني والأجدر باللفتات الجمالية [٤] .

---

(١) الـــبلاغة العربـــية ــ قـــراءة أخرى ــ د . محمد عبد المطلب ــ الشركة المصرية العالمية للنشر ــ لونجمان ــ ط الأولى ١٩٩٧م /٢٠٠

(٢) بديـــع التراكيـــب فـــي شـــعر أبي تمام ــ ١- الكلمة والجملة ــ د . منير سلطان ــ منشأة المعارف بالاسكندرية ــ ط الثالثة ١٩٩٧م /٢٧٨ .

(٣) الإتقـــان في علـــــوم القرآن ــ للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطـــــي ــ مكتبة دار التراث ٣ / ٢٢٥ .

(٤) يـــرى فريق'' من البلاغيين المحدثين أن الأَوْلى بالدراسة الفنية هي الأساليب الإنشائية دون الخبرية ، لأن القدماء أجْرَوا الأخيرة من خلال زاوية ضيـــقة زاوية الصدق والكذب وإن الفن لا يخضع لقانون التصديق والتكذيب ، وإنما يخضع لقانون الذوق والإبداع ؛ بل يرى البعض أن الأساليب الإنشائية ذاتها ليست كلها داخلة في التراكيب الفنية ، فهي إذ تنقسم إلى طلبية وغير طلبية لا يرون موضوعًا للدراسة الفنيـــة -

وارتضيت ــ بعد لأي ــ مع توفّر الأساليب البلاغية المنوطة بالمبالغة من خبرية وإنشائية (طلبية وغير طلبية) كالاستفهام ، والأمر ، والنهي ، والعرض ، والتمني ، والترجّي ، والتحضيض ، والقسم ، والتعجب ، والمدح والذم ، والحذف ، والالتفات ، والمخاطبة ، والتكرار ، والطباق ، والقصر ، والتقديم ، والتأخير ، والتعليل ، والشرط ، والنفي ، والتوكيد .

أن أنحوَ منحى القدماء في التفرقة بين الأساليب الخبرية والإنشائية

= إلا الأولى فقط يقول أحمد مصطفى المراغي (وينقسم (الإنشاء) إلى :

١- طلبي وهو خمسة أنواع : الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء ، ويعرف بأنه يستدعي مطلوبًا غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب .

٢- غير طلبي وهو ما يستدعي مطلوبًا حاصلاً وأنواعه كثيرة منها صيغ المدح والذم ، والعقود كبعتُ واشتريتُ ووهبتُ والقسم ، والتعجب . <u>والذي يهتم البليغ بالبحث عنه هو القسم الأول لأن فيه من المزايا واللطائف ما ليس في القسم الثاني</u>) علوم البلاغة / ٧٣ ويتابعه في ذلك الدكتور عبد القادر حسين إذ يقول : (والإنشاء غير الطلبي : لا يبحث فيه علم المعاني ، <u>لقلة فوائده البلاغية</u> ولأن أكثر أنواعه إنما نقلت عن الخبرية فيستغنى بأبحاثها بخلاف الإنشاء الطلبي : فهو موضع عنايتهم . لما فيه من الدقائق اللطيفة ، والفوائد الجليلة) فن البلاغة ــ د . عبد القادر حسين ــ عالم الكتب ــ ط الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م / ١١١ أما الدكتور شفيع السيد فحتى الطلبي منه لا يسلم عنده كله للدخول في دائرة البلاغة (وفي أسلوب الإنشاء يلحظ الدارس في كلام البلاغيين إسرافًا شديدًا في تفريع المعاني والدلالات وتوليدها ، فإذا أعوزهم النموذج الدال من الشعر أو النثر اصطنعوا مثالاً يؤيدون به ما يريدون ، وهذه سمة'' عامة في الواقع في المباحث البلاغية كلها عند المتأخرين على أن الأهمية الحقيقية لهذا الأسلوب في دلالاته تتركز في أسلوبي الاستفهام والأمر ، وأولهما بخاصة ، <u>أما الأساليب الباقية فليست بذات شأن ، ويبدو كثير'' مما ذكر لها من دلالات أمرًا متكلفًا</u> ، وكأنما أرادوا استيفاء الحديث عن سائر الأساليب الإنشائية متابعة منهم في ذلك للنحويين) البحث البلاغي عند العرب ــ تأصيل وتقييم ــ د . شفيع السيد ــ دار الفكر العربي ــ ط الثانية ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م /١٨٦ بيْد أن الدكتور منير سلطان يرى أن لا جدوى من هذه التقسيمات والتفريعات (ولو أعدنا النظر ، لأرحنا أنفسنا من مُسمىً هذه " الجملة الإنشائية " لأن الجملة الإنشائية خبرية في مضمونها ، فالاستفهام خبر'' عن المتكلم يطلب فَهْمَ شيء بعينه ، والأمر : خبر'' عن الأمر بفعل شيء ، والنهي : خبر بعدم فعل شيء ، والنفي : خبر'' بأنه لم يحدث شيء والتمني : خبر عن الأمل في شيء ... الخ) بديع التراكيب ــ د . منير سلطان / ١٩٣ ، والظاهر أننا لا نستطيع أن نحكم مُسبقًا أي تلك الأساليب أجدر بالفنية ، فمتى كان الأسلوب بليغًا رصينًا فهو أدخلُ وألصق دونما نظر إلى كونه خبرًا أو إنشائيًا ، وإلا فقلْ أولاً : أين تجد بلاغيات التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير والحذف ، والالتفات ... الخ ؟ هل تجدها في الإنشائية دون الخبرية ؟ ، أو تجدها في الطلبية دون غير الطلبية ؟ ثانيًا : ماذا نفعل بالأساليب الخبرية القرآنية هل تخرج كذلك من دائرة البلاغة ؟ وأخيرًا : كيف الحال إذا أتت " المبالغة " مقترنة بالأساليب الخبرية أو منوطة بأساليب المدح والقسم والتعجب والمخاطبة والتكرار تلك التي خلا معظمها ــ في نظرهم ــ من المزايا واللطائف ؟ ، فهل تُردُّ لذاتها دون الالتفات إلى النكات البلاغية التي اعتورتها . في الواقع (هذا حَجْر'' على الأساليب ، وقصور في فهم عمل البليغ ، فكل أسلوب ارتقى عن المستوى المباشر في الأداء ، يصلح مادةً للبلاغي يبحث فيه من مزيّته وفضيلته والإبداع الكامن فيه) بديع التراكيب / ١٩٤ .

الطلبي منها وغير الطلبي وأبغي من جَرَّاء ذلك عدة أمور :

أولاً : التزمتُ هذا السَّمت التراثي قصدًا للترتيب والتنظيم ؛ إذ يعمل هـذا علـى جمـع الفكـرة وتجميع الظاهرة ، فقد تبدو ظاهرة " ما " تتعلق بالأسـلوب الخبري ، وأخرى تتعلق بالإنشائي ، ومن ثمَّ يمكن رصدُ سمات كل أسلوب على حدة دون خلطٍ أو تداخل .

ثانـيًا : أريـد أن أثبـت ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ عن طريق الدراسـة بهذا الترتيب أن الجملة الخبرية والأخرى الإنشائية غير الطلبية ـ التي خلت في نظر البعض من اللطائف والمزايا ـ لم تخلوا من فن ولم تفقدا الذوق وإدراك الجمال .

ثالثـًا : لستُ أقصد من وراء هذا الوقوف عند رسم القدماء ، واحتذاء نهجهـم ، والفرح باقتفاء حردهم ، كما أني لست أعمل في الوقت ذاته على التقليل من شأن التراث ، والنيل من مصداقيته ، فيقيني أن دراسة مثل هذه لا يُكتب لها النجاح إلا إذا جمعت بين إكبار التراث والإفادة من جهة أخرى من كل وافدٍ جديدٍ يعمل على تزويد البلاغة بدماءٍ جديدة .

(١) الأساليب الإنشائية " الطلبية "

أ- توظيف الاستفهام للمبالغة [١]

الاسـتفهام : هـو طلب فهم شيء لم يكن لك به علم'' قبلُ ، بأداة من إحدى أدواتـه وهـي : الهمزة وهل ومن ومتى وأيان وأين وأنَّى وكيف وكـم وأي [٢] وهو ما اصطلح البلاغيون على تسميته بالاستفهام الحقيقي .

---

(١) رجعـت في هذا الموضوع إلى : البرهـان في علوم القرآن للزركشي ٢ / ٣٢٦ ، والإتقان للسيوطـي ٣ / ٢٣٤ ، دراسـات لأسلوب القرآن العضيمة ٣ / ٩٤ ، ٢٨٠ ، وعلوم البلاغة للمراغي / ٧٦ ، وبديع التراكيـب للدكـتور منـير سـلطان / ٣٥١ ، والبلاغة العربية للدكتور محمد عبد المطلب / ٢٨٤ ، ودراسـات في المعاني والبديع للدكتور عبد الفتاح عثمان / ٨٩ ، وفن البلاغة للدكتور عبد القـادر حسين / ١٢٢ هذا إضافة إلى كتب التراث في البلاغة العربية .

(٢) وتنقسم هذه الأدوات بحسب الطلب ثلاثة أقسام :

١- ما يطلب به التصور تارة والتصديق تارة أخرى ، وهو الهمزة .

٢- ما يطلب به التصديق فحسب وهو : هل .

٣- مـا يطلـب بـه التصـور فحسب وهو بقية أدوات الاستفهام . والظاهر أن مصطلحي " التصـور " و " التصديق " غريبان عن حقل البلاغة وأنهما نشأ في بيئة الفلاسفة . انظر بديع التراكيب / ٣٥٦ .

بَيْد أنه يخرج أحيانـًا عن هذه الدلالة السطحية إلى دلالة أخرى عميقة حيث ينتقل السياق من المعنى المباشر إلى المعنى المثالي ، وهو ما أطلق عليه : " الاستفهام المجازي " وهو مناط الفنية ، ومحط اللفتات الجمالية ، إذ يحتوي على دلالات جديدة ، خرجت عن دلالات الإفهام والإخبار والإعلام إلى دلالات : الاستبطاء والتعجب والوعيد ، والأمر ، والتقرير ، والإنكار ، والتوبيخ ، والتعظيم ، والتحقير ، والتحسر ، والتمني ، والزجر ، والعظة والاعتبار ، والإغراء ، والحض ... الخ ، والذي يعنينا من كل هذه الدلالات في مبحثنا ما علق بدلالة " المبالغة " ورسم التصور البعيد وأغربَ وكشَّف الفحوى ، وأصاب مراميه من أقاصي معانيه ، ورام المضامين من أفانين الأقوال وبديع التراكيب كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نقولُ لِجَهَنَّم **هل امتلأتِ** وَتَقُولُ **هل مِن مَزِيدٍ** ﴾ (١)

السؤال " هل امتلأت " ؟ والجواب أنه للتقرير والتوقيف ، لا سؤال استفهام حقيقة ؛ لأنه تعالى عالم بأحوال جهنم (٢) أما قولُ " جهنم " " هل من مزيد " ؟ فهو إما بلسان المقال أو بلسان الحال وعلى هذين الحالين قامت تأويلات المفسرين . قال ابن جُزَيّ : (وتقول هل من مزيد) الفعل مسند إلى جهنم وقيل إلى خزنتها من الملائكة ، والأوّل أظهر ، واختلف هل تتكلم " جهنم " حقيقةً أو مجازًا بلسان الحال ، والأظهر أنه حقيقة ، وذلك على الله يسير ، ومعنى قولها " هل من مزيد " إنما تطلب الزيادة وكانت لم تمتلئ ، وقيل معناه لا مزيد أي ليس عندي موضع للزيادة هي على هذا قد امتلأت والأول أظهر وأرجح ، لما ورد في الحديث لاتزال جهم يُلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يُلقِي فيها الجبَّارُ قدمه) (٣) بحيث لم تدع النار للكافر أدنى احتمال في اكتفائها وامتلائها ، فقد اتسعت اتساعًا مَهولاً حتى إنها لتنطق بنفسها تلتمس المزيد (فأقام تعالى الأمر المدرك بالعين مقام المسموع بالأذن)(٤) فلربما أخطأت عينه فلم تر الاتساع العظيم ، فجاء الإدراك الثاني " المسموع " ليقرع أذنه ويوقفه أمام الحقيقة المُرَّة وهي تَرَبُّص " جهنم " به ، تكاد تميُّز من الغيظ ، تتلمظ كلما أُلقي فيها وقودها البشري قائلة " هل من مزيد " ؟ ! .

---

(١) ق/ ٣٠ (٢) انظر البحر المحيط ٨ / ١٢٦ .

(٣) التسهيل ٤ / ٦٥ (٤) تلخيص البيان للشريف الرضي / ٢٩٢

وجمـــال القـــرآن أنـــه يتسع لكل التأويلات ، يتسع للحقيقة كما يتسع للمجـــاز ، وهـــذا البروز الظاهر الناطق " لجهنم " بتلك الصورة المُتَحَدِّثة قد منح المعنى أقصى غاية في إدراك قوة الحدث الناشئ عن النار بقوة اتساعها وتهيئوها ، واستعدادها لاستقبال أضخم عدد ممكن من الكافرين والمكذبين ، وقد قطعت عليهم فكرة احتمالية الاكتظاظ والامتلاء .

كذلك قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١)

هذا خطاب الله لأحبار اليهود إذ يقول لهم على سبيل التقريـــع والتوبيخ " أتأمـــرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم " هل تدعون الناس إلى الخير وإلى الإيمان بمحمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وتتركون أنفسكم فمـــا ذلك بفعل العقلاء .

(الاســـتفهام هـــنا للتوبيخ لعدم استقامة الحمل على الاستفهام الحقيقي فاســـتعمل فـــي التوبـــيخ مجازًا بقرينة المقام) (٢) ومن اللفتات الجمالية أن الســـياق القرآني أتى بالمضارع " أتأمرون " وإن كان قد وقع ذلك منهم لأن صـــيغة المضـــارع تفيد التجدد والاستمرار وكأن هذا دأبهم في كل حـــالٍ وزمـــانٍ ، وعـــبَّر عن ترك فعلهم بالنسيان " وتنسون أنفسكم " **مبالغة** " في الـــترك ، كأنـــه لا يجري لهم على بال ، وعلقه بالأنفس توكيدًا **للمبالغة** في الغفلة المفرطة ، كذلك لا يخفى ما في الجملة الحالية " وأنتم تتلون الكتاب " من التبكيت والتقريع والتوبيخ .

أما الاستفهام الثاني " أفلا تعقلون " فالمعنى أتتلونه (فلا تعقلون ما فيه أو قـــبح ما تصنعون حتى ترتدعوا عنه فالإنكار متوجه إلى عدم العقل بعد تحقـــق مـــا يوجبه ، **فالمبالغة** من حيث الكيف ، أو ألا تتأملون فلا تعقلون فالإنكار متوجه إلى كلا الأمرين **والمبالغة** حينئذٍ من حيث الكم) (٣) .

---

(١) البقرة / ٤٤

(٢) التحرير والتنوير ١ / ٤٧٤ ، ٤٧٥

(٣) أبو السعود ١ / ٩٧

ومثله قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (١)

حيث وُظِّف الاستفهامُ ليُبدي لنا هذه الصورة المنفرة من الغيبة لما يناله المغتاب من عِرض المغتاب على أفظع وجه ، وأفحشه ، ومبناه على أصلٍ معروف في كلام العرب وهو تسميتهم المغتاب بآكل لحوم الناس حتى قال شاعرهم :

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ∴ وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدًا

وحمل السياق لفتات جمالية ولوحات فنية متعددة إضافة إلى الاستفهام منها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحدًا من الناس لا يحب ذلك بحال ، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخًا وفيه من التنفير ما فيه ، ومنها عدم الاقتصار على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتًا **مبالغة** في التنفير والكراهة (٢).

ومنه المبالغة في لطف العتاب نحو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٣)

إنه عتاب " بليغ " مُؤثِّر : أما حان الوقت للمؤمنين أن ترق قلوبُهم وتلينَ لمواعظ الله ، إذ بعث فيهم نبيًّا كريمًا ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأنزل عليهم آياته البينات وأتم عليهم مننه وفضله (قيل كانوا مجدين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت وعن ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على

---

(١) الحجرات / ١٢ ، قال الراغب الأصفهاني : (أكل فلان " فلانًا : اغتابه ، وكذا : أكل لحمه قال تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدكم أن يأكل لحم أخيه مَيْتًا ﴾ المفردات / ٨٠

(٢) انظر الكشاف ٤ / ١٥ ، وتلخيص البيان / ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، والتسهيل ٤ / ٦١ ، والبيضاوي ٢ / ٤١٧ ، وأبا السعود ٨ / ١٢٢ ، والبحر المحيط ٨ / ١١٤ ، والقرطبي ٩ / ٦٣٨٥ ، والتحرير والتنوي مجلد ١٢ ٢٦ / ٢٥٤ ، ٢٥٥

(٣) الحديد/ ١٦ ، سمع " الفضيل بن عياض " قارئًا يقرأ هذه الآية فقال قد آنى فكان سبب رجوعه إلى الله وحكى أن عبد الله بن المبارك أخذ العود في صباه ليضربه فنطق بهذه الآية فكسره ابن المبارك وتاب إلى الله . انظر التسهيل ٤ / ٩٧ ، ٩٨ .

رأس ثلاث عشر من نزول القرآن وعن الحسن رضي الله عنه أما والله لقد استبطأهم وهم يقرءون من القرآن أقل مما تقرءون فانظروا في طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق وعن أبي بكر رضي الله عنه أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم'' من أهل اليمامة فبكوا بكاءً شديدًا فنظر إليهم فقال هكذا كنا حتى قست القلوب) [١] فهذه **المبالغة** في اللطف ، وهذا العَتْب الرقيق ، فيه استمالة إلى الشعور بجلال الله ، والخشوع لذكره وتقبل ما نزل من الحق بما يليق بجلاله سبحانه وعظمته ، فحقُّه أن يُذكر فلا يُنسى وأن يُشكر فلا يُكفر وأن يُطاع فلا يُعصى ، واللافت في الاستفهام سياق " ألم يأن " ؟ ففيه تكثيف دلالة الاستفهام التي تمنح المُتلقي دلالات الرأفة والحض وعدم التقاعس عن الاستجابة والمسارعة إلى التنفيذ .

ومنه **المبالغة** في الترغيب : نحو الترغيب في النفقة كما في قوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذي يُقرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [٢]

أي من ذا الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله ، وتسمية **الإنفاق** قرضًا تلطف في الاستدعاء ، **ومبالغة** في الترغيب في الإنفاق كما أن ذكر لفظ " القرض " يُعَدُّ تقريبًا للأفهام ؛ لأن المنفق ينتظر الثواب كما ينتظر المسلف رد ما أسلف [٣] ووَصْفُ القرضِ بالحسن لاشتراط الإخلاص فيه وطيب النفس [٤] وقد فهم الصحابة الآية الفهمَ الصحيح مطابقة لإيمانهم الراسخ ، ووفقًا للدلالة المجازية ، فهذا أبو الدحداح يفهم الغرض من الآية على أنه حض'' وترغيب في الإنفاق ،

---

(١) الكشاف ٤ / ٦٦

(٢) البقرة/ ٢٤٥ ، قال أبو إسحق النحوي في قوله تعالى : " من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا " قال معنى القرض البلاء الحسن ، تقول العرب : لك عندي قرض'' حسن'' وقرض'' سيئ ، وأصل القرض ما يعطيه الرجل أويفعله ليُجازى عليه ؛ والله عز وجل لا يستقرض من عَوَز ولكنه يبلو عباده . انظر لسان العرب ٥ / ٣٥٨٩

(٣) انظر التسهيل ١ / ٨٧

(٤) قال القرطبي : قال زيد بن أسلم : لما نزلت : (من ذا الذي يُقرضُ الله قرضًا حسنًا) قال " أبو الدحداح " : فداك أبي وأمي يا رسول الله إن الله يستقرضنا ، وهو غنيٌ عن القرض ؟ قال : " نعم ، يريد أن يدخلكم الجنة قال : فإني أقرضت ربي قرضًا يضمن لي به ولصبيتي الدحداحة معي الجنة ؟ قال : " نعم " قال : ناولني يديك . فناوله رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم يده ، فقال : إن لي حديقتين : إحداهما بالسافلة ، والأخرى بالعالية والله لا أملك غيرهما ، قد جعلتهما قرضًا لله تعالى ، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : " اجعل إحداهما لله ، والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك " قال : فاشهد يا رسول الله أني =

فَيُلَبِّي بمنتهى الإيجابية ويتصدق بحديقة بها ستمائةِ نخلة ، فنعم ما فهِم ، ولنعم عقول المتقين لكنَّ ثمَّ فهمًا آخر خاطئًا ، فهمَهُ يهوديّ'' ماكر هو فنحاص أو حُيي بن أخطب ، لما نزلت الآية قال : (إنما يستقرض الفقيرُ من الغني ، فالله فقير'' ونحن أغنياء) فنزلت الآية ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير'' ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ [1] وكان ذلك القول منهم اعتراضًا على القرآن أوجبه قلة فهمهم ، أو تحريفهم للمعاني ، فإن كانوا قالوه باعتقاد فهو كفر ، وإن قالوه بغير اعتقاد فهو استخفاف وعناد [2] أرأيت كيف أدَّى التحوُّل من الاستفهام الحقيقي إلى الاستفهام المجازي إلى الدلالة الصحيحة والمضمون المراد ، وأن العكس قد أودى باليهود وأفضى بهم إلى الكفر والعناد ﴿ سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ . ويمكنك إن أردت فَهْم جمال النسق القرآني أن تتصور مراحل للمعنى قد تمَّت حتى تصل إلى إدراك أبعاد هذا النظم القرآني البليغ كالآتي :

١- أَنْفِقْ فهو فرض'' عليك بما منحك الله من المال والقوة والقدرة على الكسب .

٢- أَنْفِقْ يُجازك بالإنفاق مالاً كثيرًا وأجرًا عظيمًا .

= قد جعلت خيرهما الله تعالى ، وهو حائط فيه ستمائة نخلة ، قال : " إذًا يجزيك الله به الجنة " فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أم الدحداح ، وهي مع صبيانها في الحديقة فأخبرها ، فقالت أم الدحداح : ربح بيعك ، بارك الله لك فيما اشتريت ، وأجابته أم الدحداح ، فأقبلت على صبيانها ، تُخرج ما في أفواههم ، وتُخرج ما في أكمامهم ، حتى أفضت إلى الحائط الآخر ، فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : " كم من عِذق رَدَاح ، ودار فياح لأبي الدحداح . انظر القرطبي ١ / ١١٤٩ ، ١١٥٠ .

(١) آل عمران/ ١٨١

(٢) انظر التسهيل ١ / ١٢٥ ، ١٢٦ ، وقال القرطبي : (كني الله ــ سبحانه ــ عن الفقير بنفسه العلية المنزهة عن الحاجات ترغيبًا في الصدقة ، كما كني عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام . ففي صحيح الحديث إخبارًا عن الله ــ تعالى : (يابن آدم مرضتُ فلم تعدني واستطعمتك فلم تطعمني واستسقيتك فلم تسقني) قال : يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ! ؟ قال : " استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي " وكذا فيما قبل) أخرجه مسلم والبخاري وهذا كله خرج مخرج التشريف لمن كني عنه ترغيبًا لمن خوطب به) القرطبي ١ / ١١٥١ ، وعن بيان الفرق بين الصدقة والقرض ينقل القرطبي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (رأيت ليلة أُسري بي على باب الجنة مكتوبًا الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، فقلت لجبريل : ما بال القرض أفضل من الصدقة قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة) القرطبي ١ / ١١٥٢

٣- "أقرض ربك" = الذي جاء عليه التعبير القرآني ، تلطف في الاستدعاء كما ذكر الزمخشري [١] . على سبيل الوصول بالمعنى إلى أقصى مراميه الأمر الذي أربك اليهود البخلاء الماديين ، وقصرت دون إدراك أسراره عقولهم الضالة ، وقلوبهم المريضة ، وأنفسهم الأمّارة بالسوء ، وسواء أكان ما قالوه اعتقادًا أم استخفافًا فقد حادوا عن الطريق وابتعدوا عن الجادة .

ومن أنواع المبالغة في الترغيب ، الترغيب في الإيمان والجهاد في سبيل الله نحو قوله تعالى : ﴿ هَلْ أدلكم على تِجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ أليمٍ ﴾ [٢]

كان العرب يُسَرُّون لهذه الكلمة " تجارة " ويطربون لها أنّى طرب ، فعليها يتكئون في معاشهم وأعمالهم ، وتمثلُ لهم مصدرًا حيويًا من أسباب السعة والرزق والرفاهية ، وهم يبذلون في سبيل الحصول على المزيد من التجارات الغالي والرخيص ، فإذا الكلمة ذاتها ، ترنُّ في آذانهم هذه المرة من كتابهم المُقدَّس وتنزيلهم المعجز " تجارة " وقد سيقت في مساق الاستفهام التشويقي ، بأسلوب كله ترغيب " هل أدلكم على تجارة " من ذا الذي يسمع هذا السياق ولا يستجيب ؟ ! ، بَيْد أن التجارة هذه المرة مختلفة ، فالبذل فيها للمال وهو معروف ولكنْ ثمَّ بذل'' آخر هو بذل " النفس " ، هذا هو الثمن ، أما التجارة فهي رائجة'' رابحة ؛ لأنها تجارة'' مع الملك وهو الضامن .. يا للتجارة الرائعة ! مال قليل مهما كثُرُ ، ونفس'' مبذولة ، وإن لم تُبْذل ماتت ! وأيام قليلة معدودة ، ومتاع'' محدود'' معلوم'' .. يترك ذلك ليكسب مقابله خلودًا دائمًا ، وملكًا لاينقطع ، ولما أن النفس البشرية مهما ارتقت فهي تسعد بالعاجل ، وتطربُ للربح القريب ، قال عزَّ من قائل الذي يعلم سرَّ " النفس" ﴿ وأخرى تحبونها نصر'' من الله وفتح'' قريب'' وبشر المؤمنين ﴾ .

---

(١) انظر الكشاف ٤ / ١٠٧

(٢) السياق الكامل للآيات " يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذابٍ أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدنٍ ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر'' من الله وفتح'' قريب'' وبشرِ المؤمنين " الصف ١٠ - ١٣

فأي تشويق بعد هذا وأيّ إغراء فاق هذا !

واللافت في هذا التعبير الجمالي : استخدام لون آخر للتشويق إضافة إلى الاستفهام ألا وهو " الفصل والوصل " وذلك بين الجملتين : يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ــ تؤمنون بالله ..... " حيث انفصلت الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المُتَرقَّب ، ثم يجئ الجواب بعدما تهيأت النفوس ، واشرأبت الأسماع ، وتمهَّدت ..تؤمنون بالله ورسوله ثم أعقب ذلك الجملة التالية بالوصل .. وتجاهدون ، وذلك لأنه هو الموضوع الأساسي الذي تعالجه السورة فما أجمل نظم القرآن وأعجبه !

ومنه **المبالغة** في التهكم والاستهزاء نحو قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ (١)

سؤالان في غاية التهكم ، لك أن تتصور صورة هذه الأصنام والطعام ملقىً أمامها ؛ فقد كان القوم قد وضعوا هذا الطعام قربانًا لتبارك لهم فيه على زعمهم ، فلما دخل إبراهيم عليها ، وجَّه إليها سؤالاً مباشرًا " ألا تأكلون " ؟ .. ولم تُجبه الأصنامُ قطعًا ، قال أبو حيَّان : (وعَرْضُ الأكل عليها واستفهامها عن النطق هو على سبيل الهُزْء لكونها منحطة عن مرتبة عابديها إذ هم يأكلون وينطقون . وروي : أنهم كانوا يضعون عندها طعامًا ويعتقدون أنها تصيب منه شيئًا وإنما يأكله خدمتها) (٢) .

فالسؤال للتهكم منها ؛ لأنها لا تقوى أن تقوم بما يقوم به أي إنسان فكيف تكون آلهة ؟ ! ، كذلك السؤال للتهكم منهم أنفسهم ، فهو كشف لحقيقة انخداعهم ، فهذه الأصنام دونهم مرتبة وهم أعلى منها، فهم يقومون بما تعجز هي ان تقوم به وهو الحركة والأكل وسائر سلوك البشر فكيف يعبدونها وهي على تلك الحال ؟ ! ثم استطرد في تهكمه وعليه طابع الغيظ والسخرية : " مالكم لا تنطقون " ؟ ولكن لا إجابة إذ لا نطق لها ولا كلام وإنما هو استمداد لعنصر التهكم وتمكين الاستهزاء ، ثم مالبث أن

---

(١) الصافات/ ٩١ ، ٩٢

(٢) البحر المحيط ٧ /٣٥١

أفرغ غيظه وضيقه " فراغ عليهم ضربًا باليمين " (١) .

ومنه أيضًا : **المبالغة** في التفجع من رصد الأعمال التي بلغت منتهى الدقة في حفظها وإحصائها كما في قوله تعالى : ﴿ مال ِ هذا الكتاب ِ لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربُّك أحدًا ﴾ (٢) .

قال المجرمون وقد أخذتهم الدهشة والفاجعة في آن ٍ واحد ٍ ، ما شأن هذا الكتاب ، ما أعجبه ! لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا ضبطها ، وأحاط بها (عن ابن عباس : الصغيرة التبسُّم ، والكبيرة القهقهة ، وعن ابن جُبير : القُبلة ، والزنا ، وعن غيره السهو والعمد ، وعن الفضيل : ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر . وقُدِّمت الصغيرة اهتمامًا بها ، وإذا أحصيت فالكبيرة أحرَى) (٣) .

فقد تكررت دلالة **المبالغة** في هذا السياق مرتين ، الأولى من الرصد نفسه في دقته المتناهية ، التي عُدَّت فيه الصغائر وإن تناهت في القِلَّة قبل الكبائر ، والأخرى من ظهور الفضائح الصغيرة التي ارتدت آثارها على وجوههم حسرة وندامة وخوفًا ﴿ ياويلتنا مال ِ هذا الكتاب ﴾ وكان مشهد الأعمال حاضرًا وكاملاً في الوقت ذاته ﴿ وَوَجَدُوا ما عَمِلوا حَاضِرًا ﴾ ثم كان الختام العادل ﴿ ولا يظلم ربك أحدًا ﴾ .

والخلاصة : **مبالغة** في الحصر الدقيق المتناهي = قابلها **مبالغة** في الفاجعة المفرطة التي علت على وجوههم من جَرَّاء تلك الإحاطة البليغة بكل شيء .

ومنه **المبالغة** في الاستبطاء : نحو قولك : كم دعوتك ؟! وأنت تعني كثيرًا ما دعوتك بَيْد أنك لم تستجب !

---

(١) الصافات / ٩٣

(٢) الكهف / ٤٩

(٣) البحر المحيط ٦ / ١٢٨

وعليه قـوله تعالى : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللهِ ﴾ (١) .

إنها تجربة ابتلاء شديدة ، يتعرض لها الصفوة وعلى رأسـهم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد أزعجوا إزعاجًا شديدًا شبيهًا بالزلزلة حتى وصل بهـم الأمـر أن يقـول الرسـول والمؤمـنون معه متى نصر الله ؟ قـال الزمخشـري : (أي بلـغ بهـم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك ، ومعـناه طلب وتمنيه واستطالة زمان الشدة وفي هذه الغاية دليل على **تناهي الأمـر فـي الشـدة** ، **وتماديه في العظم** ؛ لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصـطبارهم وضبطهم لأنفسهم ، فإذا لم يبق لهم صبر'' حتى ضجوا كان ذلك الغاية في **الشدة التي لا مطمح وراءها**) (٢) .

ومنه **المبالغة** في الاستخفاف :

وهـو مـن المنافقين عند تنزُّل القرآن والاستماع إليه نحو قوله تعالى على لسانهم : ﴿ أيكم زَادَته هذه إيمانـًا ﴾ (٣) .

تلـك مقولة المنافقين المعاندين على وجه الاستهزاء ، والاستخفاف ، **والمـبالغة** في نفي أدنى تأثير للقرآن عليهم ، والتشكيك في استعلاء الإيمان بسببه ثم يأتي الجواب الحاسم : حسرة'' عليكم لقد وقع لكم التأثير ، وحدثت لكـم الزيادة اللائقة بكم من حيث لا تدرون ، لكنها ليست زيادة إيمان وإنما زيادة كفر ونفاق . قال عزَّ من قائل : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانـًا وهم يَسْتَبْشِـرون * وأمـا الذين في قلوبهم مرض'' فزادتهم رجسًا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ ، ومن **النكات اللطيفة** في السياق الاستفهامـي أداء " المفـردات " في التركيب لدور المؤازرة في الدلالة في الكشف عن طبيعة غرضهم :من التهوين والتشكيك والاستخفاف ، فهاهو اسم الإشـارة " هـذه " التي يُشتمُّ منها رائحـة التهـوين من شـأن التـنزيل ،

---

(١) تمـام الآيـة : " أم حسـبتم أن تدخلوا الجنة ولمـًا يأتكم مَثَـلُ الذين خَلَوا من قبلكم مستهم البأساء والضـراء وزلـزلوا حـتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى **نصر الله** ألا إن نصر الله قـريب " البقرة / ٢١٤ .

(٢) الكشاف ١ / ١٢٩ ، ١٣٠

(٣) تمام السياق : " وإذا ما أُنزلت سورة'' فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانًا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانـًا وهـم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض'' فزادتهم رجسًا إلى رجسهم وماتـوا وهم كافرون " التوبة /١٢٤ ، ١٢٥ .

إضافة إلى تنكير " إيمانًا " حيث أسهم في هذه الدلالة من جهة التقليل والتحقير من شأنهِ في نظرهم .

وأؤكد أن دلالة جزء من السياق ليس معناه إيقاف جماليات التعبير الأخرى ، فمسألة تكثيف الدلالة حول جمال الاستفهام لا يعني الغض من سائر الأدوات الفنية المنوطة بالسياق مثل أدوات : الالتفات ، والتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير ، والحذف والذكر ، والتكرار والطباق والتصوير... الخ . إن هذه النظرة القاصرة في تكثيف الدلالة حول ظاهرة فنية واحدة فقط دون الالتفات إلى سائر الظواهر الفنية الأخرى يؤدي إلى فصل مكونات التعبير اللغوي بعضها عن بعض حتى تُفضى في النهاية إلى شيء من السطحية والآلية (١) .

ومنه توظيف الاستفهام للمبالغة في الإنكار للتوبيخ والتكذيب (٢) .

نحو قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ (٣) .

خطاب'' على وجه الاستنكار الشديد للعرب الذين قالوا : إن الملائكة بناتُ الله ، والمعنى أفخصكم ربكم وأخلصكم بالذكور واختار لنفسه ــ حاشا ــ البنات ، كيف يجعل لكم الأعلى من النسل ويختار لنفسه الأدنى (٤) .

ومناط المبالغة ــ هنا ــ في السياق في هذا التصور الباطل الناشيء

---

(١) انظر البحث البلاغي / ٢٠٠

(٢) قال الخطيب القزويني : الإنكار : إما للتوبيخ ، بمعنى ما كان ينبغي أن يكون نحو : أعصيت ربك ؟ أو بمعنى لا ينبغي أن يكون ، كقولك للرجل يُضيِّعُ الحق : أتنسى قديم إحسان فلان ؟ وكقولك للرجل يركب الخطر : أتخرج في هذا الوقت ؟ أتذهب في غير الطريق ، وإما للتكذيب ، بمعنى " لم يكن " كقوله تعالى : " أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثًا " الإسراء / ٤٠ ، وقوله تعالى : ((أصطفى البناتِ على البنين)) الصافات / ١٥٣ أو بمعنى " لا يكون " نحو : ((أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)) هود/ ٢٨ ، وأرى أن القسم الثاني الذي هو " للتكذيب " يحمل في دلالاته ــ أيضًا ــ معنى التوبيخ وإنما هو غرام'' عند القدماء بكثرة التقريعات والتقسيمات . انظر الإيضاح في علوم البلاغة ــ الخطيب القزويني ت ٧٣٩هـ ــ تحقيق د . عبد القادر حسين ــ مكتبة الآداب ــ ط الأولى ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م / ١٧٢ .

(٣) الإسراء/ ٤٠

(٤) انظر التسهيل ٢ / ١٧٢

مـــن تلـــك القسمة الضيزى بل تلك القضية الباطلة من أساسها ، فالله ـــ عز وجـــل ـــ وتـــبارك وتعـــالى "منزّه" عن الولد ، ومن شدة غلوهم في الظلم والافـــتراء ، أنهـــم لمّـــا نسبوا لله الولد ، لم ينسبوا له ـــ سبحانه ـــ أعز ما يحبون ، وأفضل ما يتمنون وهم الذكور ، بل نسبوا له ـــ سبحانه ـــ الإناث وفـــي هذا كذب" محض وافتراء شنيع لا يليق بذات الله عز وجل ولذا جاء السياق : " إنكم لتقولون قولاً عظيمـــاً " .

أي عظيم النكر والشناعة ؛ لأنهم فاقوا كلَّ حدٍّ للتصور والتصديق في كفرهم وجرأتهم ووقاحتهم .

ملاحظات على دراسة أسلوب الاستفهام :

١- تمـــت دراســـة أحـــد عشر نموذجًا من نماذج القرآن الكريم في الاســـتفهام الفني ، كان نصيب الأدوات منها : الهمزة : ستة نماذج ، وهل : نموذجان ، وما ومتى ومن : كلٌّ منهم نموذج واحد .

٢- أغراض الاستفهام الفنية التي وردت منوطةً بفن " المبالغة " أي التي تحركت فيها الدلالة إلى منتهىً لا منال فيما وراءه ، أو برز فيها المعـــنى مثـــيرًا للفكـــر والخيال بما هو أغرب وأبدع هي : التقرير والتوقـــيف والتوبـــيخ والـــتقريع ، والـــتقرير ، واللطف في العتاب ، والترغيـــب فـــي الإنفاق والترغيب في الجهاد في سبيل الله ، والتهكم والاستهزاء ، والتفجُّع والاستبطاء والاستخفاف والتكذيب .

وتناولـــت هـــذه الأغـــراض جماعاتٍ معينة : فجماعة المؤمنين كان حظهـــم مـــن الأغراض : اللطف في العتاب ، والترغيب في الإنفاق والجهـــاد ، والتحذير من الغيبة ، واستبطاء النصر ، ولليهود التوبيخ والـــتقريع ، وللكفـــار التكذيب ، وتقرير اتساع جهنم لهم في الآخرة ، وللمنافقين الاستخفاف .

٣- ثَمَّ فارق بين اصطلاح البلاغيين ، ودلالة المفسرين ، فمثلاً في قول الله تعالى : ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ (١)

---

(١) البقرة / ٢١٤

نجد أن البلاغيين أوردوا هذا المثل تحت مصطلح " الاستبطاء " بَيْد أن المفسرين من شرحهم الآية ، تبدَّت فيها دلالات **المبالغة** ، قال الزمخشري في بعض عباراته تفسيرًا للآية " وفي هذه الغاية دليل على **تناهي الأمر في الشدة** " ، " فإذا لم يبق لهم صبر " حتى ضجوا كان ذلك **الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها** " (١) وكلها كما ترى ألفاظ مرادفة **للمبالغة** وهذا الذي يُفسِّر سبب اختياري أغراضًا محددة تلك التي اقتربت من دلالات المبالغة من جملة أغراض الاستفهام الفني الأخرى ، ويُفسِّر أيضًا لِمَ آثرتُ أن أضع عنوان الغرض " المبالغة في الاستبطاء " وهكذا في كل الأغراض ، لأن عمدتي في هذا ليس اصطلاح البلاغيين فقط وإنما استنباط المفسرين ، ودلالة السياق والبحث عن فحوى الآية وارتباطها بمغزى السورة .

٤- يُعَدُّ أسلوب الاستفهام أغنى الأساليب الإنشائية ثراءً في نماذجه وتنوعه ودلالاته .

٥- أؤكد ما ذكرته ـ آنفًا ـ أن الحديث عن فنية الاستفهام في السياق ليس معناه الغض من الأدوات الفنية الأخرى ، وإلا أدَّى ذلك إلى تشتيت الظاهرة البلاغية وفصل مكونات التعبير اللغوي .

٦- من أجمل وأشمل الدراسات التي قدمها القدماء لدراسة الاستفهام في البلاغة العربية دراسة الخطيب القزويني في الإيضاح (٢) .

٧- تنشأ المبالغة ـ أحيانًا ـ من الأداة نفسها كما في قوله تعالى : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (٣) وأحيانًا تتدرج في سياق التركيب الاستفهامي من فحوى الدلالة ، وهنا يكون الاستفهام له دور " أيضًا في المبالغة ، ولكن التركيب بأدواته ودلالاته يكون هو المعتمد .

٨- من النكات اللطيفة في أسلوب الاستفهام حملُ السياق على الحقيقة أو المجاز قد يؤدي إلى قضية خطيرة في الاعتقاد هي قضية الكفر

---

(١) انظر الكشاف ١ / ١٢٩ ، ١٣٠

(٢) انظر الإيضاح للخطيب القزويني / ١٦٥ ـ ١٧٦

(٣) البقرة / ٢١٤

أو الإيمان كما في قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذي يُقرِضُ اللهَ قَرْضًا حسنًا﴾ (١) .

وإني لا أريدُ أن أجُرَّ التذوق الجمالي إلى دائرة الاعتقاد ، بَيْد أن هذا هو الذي حدث ، فبينما حمل المؤمنون السياق على المجاز وهذا أبو الدحداح يتصدق بحديقته وبها ستمائة نخلة وَقفًا لما فهمه من الدلالة المجازية المرغِّبة في الإنفاق ، نجد أن فنحاص أو حيي بن أخطب ــ قاتلهما الله ــ فهم السياق على الحقيقة (أن الله فقير'' يحتاج إلى القرض) ــ حاشا لله ــ فأدَّى به إلى الكفر ــ عياذًا بالله ــ كما بينت آنفًا .

ب- توظيف الأمر للمبالغة (٢)

الأمر : هو طلب حصول الفعل على جهة الإلزام والاستعلاء (٣) .

والأصل في صيغة الأمر أن تفيد الإيجاب ، بَيْد أنه يخرج ــ أحيانًا عن مقتضى الظاهر متعديًا الدلالة السطحية إلى دلالة أخرى عميقة ، ينتقل خلالها السياق من المعنى المباشر إلى المعنى المثالي ، حيث الدلالات المجازية لأسلوب الأمر ومنها :التهديد ، والتعجيز ، والتسخير ، والإهانة ، والتسوية ، والتمني ، والدعاء ، والالتماس ، والاحتقار .... إلخ .

ومن الدلالات المجازية التي برزت فيها " **المبالغة** " : التعجيز (٤) :

---

(١) البقرة /٢٤٥

(٢) رجعت في هذا الأسلوب إلى الكتب الآتية : البرهان في علوم القرآن ٢ / ٣٧٤ والاتقان ٣ / ٢٤٢ وفن البلاغة / ١١٦ ، وبديع التراكيب ٣٠٦ وعلوم البلاغة / ٨٧ والبلاغة العربية / ٢٩٢ ، ودراسات في المعاني والبديع / ٨٠ بالإضافة إلى كتب التراث في البلاغة العربية .

(٣) وله صيغ'' أربع :

(أ) فعل الأمر نحو قوله تعالى : " واصنع الفلك بأعيننا ووحينا " هود /٣٧ .

(ب) المضارع المقترن بلام الأمر نحو : " لِيُنفق ذو سعةٍ من سعته " الطلاق/ ٧ .

(جـ) اسم فعل أمر نحو قوله تعالى : " عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم " المائدة / ١٠٥ .

(د) المصدر النائب عن فعله نحو قوله تعالى : " واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا " النساء / ٣٦ .

(٤) قال د . محمد عبد المطلب : (التعجيز : وسياقه الخارجي يعود إلى المتلقي الداخلي الذي يدَّعي أن في وسعه وطاقته أن يفعل شيئًا وهو محال ، في مثل قولنا لشخص " احمل الجبل " الذي يرتد في العمق إلى " احمل الجبل وهو محال " وعلى هذا قوله تعالى للكافرين : " فأتو بسورة من مثله " البلاغة العربية / ٢٩٤ .

كقولك لمن يدَّعي أمرًا تعتقد أنه ليس في وسعه [1] : افعله : وأنت توقن تمامًا أنه من المستحيل أن يفعله ، وعليه قوله تعالى : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ [2] أي فأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن في بلاغته وفصاحته واجمعوا ما شئتم من أعوانكم ونصرائكم ، ولكن هذا أمر مُحال والمحال ضرب'' من المبالغة ، إذ إن التحدي لم يكن في القرآن كله ولا نصفه بل في سورة واحدة = الغاية في القلة ، فبلغوا الغاية في العجز " فإن لم تفعلوا ــ ولن تفعلوا ــ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ُأعِدَّت للكافرين " وقد تعددت لوحات المبالغة في هذا السياق على النحو التالي :

أولاً : في تخصيص جزء مُحدَّد من المُتحدَّى به وهو : ﴿ فأْتوا بِسُورةٍ من مِّثْلِهِ ﴾ حيث بلغ النهاية في أدنى الاختيار [3] .

ثانيًا : التحدي ليس قائمًا على شخص واحد أو جماعة واحدة ، بل المطلوب هو أن يستعينوا ــ على سبيل المبالغة ــ بمن شاءوا من النصراء والأعوان .

ثالثًا : " الشهداء " جمع شهيد للمبالغة كعليم وعلماء [4] وهم الفصحاء البلغاء المجيدون حَوْك الكلام من النُثَّار والنُظَّام ، والمتقلبون في أفانين البيان والمشهود لهم في ذلك بالإحسان [5] .

رابعًا : هذا التحدي ظل قائمًا في حياة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبعدها ولا يزال قائمًا حتى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة وعلى الرغم من طول هذه الفترة إلا أنه لن تُفلح محاولاتهم بإفادة قوله عز من قائل : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ !

---

(١) انظر الإيضاح / ١٧٧

(٢) البقرة / ٢٣ وتمام السياق القرآني : " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ُأعِدَّت للكافرين " البقرة /٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سياقات التحدي بالقرآن في آياته ثلاث :

١- " فأتوا بسورة من مثله " البقرة / ٢٣ .

٢- " فأتوا بعشر سور مثله مفتريات " هود / ١٣ .

٣- " على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله " الإسراء / ٨٨ .

ولا شك أن أدنى تحدي كان هو السياق الأول الذي نحن بصدده .

(٤) انظر البحر المحيط ١ / ٢٤٢ .

(٥) انظر البحر المحيط ١ / ٢٤٣ .

واللافت في السياق تنكير "سورة" المفيد للشمول والعموم ليؤازر دلالة المبالغة ومعنى التحدي أي فأتوا بأي سورة شئتم : مكية أو مدنية ، مجملة أو مُفصَّلة ، قصيرة أو طويلة ، قال سيد قطب : (والتحدي هنا عجيب ، والجزم بعدم إمكانه أعجب ، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة . وما من شك أن تقرير القرآن الكريم أنهم لن يفعلوا ، وتحقق هذا كما قرره هو بذاته معجزة لا سبيل إلى المماراة فيها . ولقد كان المجال أمامهم مفتوحًا ، فلو أنهم جاءوا بما ينقض هذا التقرير القاطع لانهارت حجية القرآن ولكن هذا لم يقع ولن يقع .. على أن كل من له دراية بتذوق أساليب الأداء ، وكل من له خبرة بتصورات البشر للوجود وللأشياء ، وكل من له خبرة بالنظم والمناهج والنظريات النفسية أو الاجتماعية التي ينشئها البشر ... لا يخالجه شك في أن ما جاء به القرآن في هذه المجالات كلها شيء آخر ليس من مادة ما يصنعه البشر ، والمراد في هذا لا ينشأ إلا عن جهالة لا تميز ، أو غرض" يلبس الحق بالباطل) (١) .

ومنه **المبالغة** في التهديد نحو قوله تعالى : ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ ﴾ (٢) .

أي إن لم تنتهوا عن الربا حوربتم ومعنى فأذنوا : اعلموا (والظاهر أن الخطاب في قوله : ﴿ فإن لم تفعلوا ﴾ هو لمن صدرت الآية بذكره ، وهم المؤمنون ، وقيل : الخطاب للكفار الذين يستحلون الربا ، فعلى هذه المحاربة ظاهرة ، وعلى الأول فالإعلام أو العلم بالحرب جاء على سبيل **المبالغة** في التهديد دون حقيقة الحرب ، كما جاء " من أهان لي وليًّا فقد آذنني بالمحاربة وقيل : المراد نفس الحرب) (٣) .

وقال الصاوي على الجلالين (لكم فيه **تهديد شديد** .. ولما نزلت قالوا لا يَدَ لنا بحربه) (٤) .

واللافت في السياق تنكير " حرب " لقصد التفخيم والتعظيم لتسهم في

---

(١) الظلال ١ / ٤٨ ، ٤٩

(٢) تمام السياق القرآني : " يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوسُ أموالكم لا يظلمون ولا تُظلمون " البقرة/ ٢٧٨ ، ٢٧٩

(٣) البحر المحيط ٢ / ٣٥٢ .

(٤) الصاوي على الجلالين ١ / ١١٧

تكثيف دلالة المبالغة التي تؤدي إلى شدة التنفير من الربا والعمل على المسارعة في التخلص منه ، ونبذه بالكلية .

ومنه في التهديد أيضًا قوله تعالى : ﴿ اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ (١) .

أي افعلوا ما تشاءون في هذه الحياة وهو وعيد'' وتهديد لا إباحة ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ (٢) .

ومنه المبالغة في الإهانة (٣) نحو قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العزيزُ الكريمُ ﴾ (٤) . يُقال للزبانية ــ وَفقًا لسياق الآيات ــ خذوا هذا الفاجر العنيد فسوقوه وجروه من تلابيبه بعنف وشدة إلى وسط الجحيم المستعر ثم صبوا فوق رأسه الحميم المتناهي حره ثم يقال له على سبيل التهكم والإهانة : ذق هذا العذاب فإنك أنت المعزَّز المُكرَّم قال عكرمة : التقى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأبي جهل فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرني أن أقول لك : ﴿ أولى لك فأولى ﴾ (٥) . فقال : بأي شيء تهددني ! و الله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئًا (حاشا لله) ، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه ، فقتله الله يوم بدر واذلَّه (٦) ونزلت هذه الآية (٧) .

إنه جانب نفسي ، وبُعْد'' معنوي ، فبعد أن لقى أشد أنواع الإيلام والتعذيب الحسيَ البدنيَّ ، كان هناك لون'' آخر ينتظره من العذاب إنه التأنيب النفسي والإيلام المعنوي ، إنها الإهانة بلا كرامة والجفوة بلا لين

---

(١) تمام الآية " إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يُلقى في النار خير'' أم من يأتي آمنًا يوم القيامة * اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير " فصلت / ٤٠

(٢) انظر البحر المحيط ٧ / ٤٧٨

(٣) قال د . محمد عبد المطلب : ((الإهانة : وسياقها يرتدُّ إلى المتلقَّى الداخلي أو المباشر ، من حيث يكون المقصود تصغير شأنه ، وقلة المبالاة به ... نحو قوله تعالى : (كونوا حجارة أو حديدًا) الإسراء/ ٥٠))

(٤) الدخان /٤٩ ، وتمام السياق القرآني : " خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم " الدخان /٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ .

(٥) القيامة / ٣٤

(٦) وضع ابن مسعود قدمه على وجه أبي جهل يوم بدر وقال أبو جهل وهو مذلول مهزوم لابن مسعود : " لقد ارتقيت مرتقىً صعبًا يا رويعي الغنم . فأصابه الذل في الدنيا والأخرة .

(٧) انظر القرطبي ٩ / ٦٢٠٠

أو هــوادة ، إنـــه جــزاء'' لأقوالهــم المتغرطسة وفي الوقت ذاته جــزاء أعمـــالهم : الجــزاء من جنس العمل ، فكم من مؤمن سخروا منه وكم من جماعـــة مؤمـــنة ضحكوا منها ﴿ فاليومَ الذين آمنوا من الكفار يَضْحَكُون * عَلَــى الأرائك يَنْظرون * هل ثُوِّب الكفارُ ما كانوا يَفْعلون ﴾ (١) فيالسخرية من الكافرين ! ما أعظم إهانتهم ، وأفدح خسارتهم وأشنع فعالهم !

ومِــن المبالغة في التواضع قوله عز من قائل : ﴿ وَاخْفِضْ لهما جَنَاح الذلِّ من الرحمةِ ﴾ (٢)

والمعــنى : ألِن جانبك وتواضع لهما بتذلل وخضوع من فرط رحمتك وحَدَبك عليهما قال أبو حيان : (ثم أمره تعالى بالمبالغة في التواضع معهما بقوله :" واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ") (٣) . وقال ابن جُــزَي : (فهــو كقوله : " واخفض جناحك للمؤمنين " (٤) وإضافته إلى الذل مبالغة في المعنى كأنه قال الجناح الذليل ، (ومن) في قــوله " من الرحمة " للتعليل ، أي من أجل إفراط الرحمة لهما والشفقة عليهما) (٥) بَيْد أنه يَحْسُن بنا أن نــدرك العلاقة بين خفض جناح الطائر والتواضع ، فمن شأن الطائر ــ كما يذكر أبو السعود (٦) خفض جناحه لأفراخه تربية لها وشفقة عليها ، وقد أمر الولــد بالتواضـــع لهما تواضعًا يبلغ حد الذل لهما لإزالة وحشة نفوسهما إن صارا في حاجة إلى معونة الولد ؛ لأن الأبوين يبغيان أن يكونا هما النافعين لولدهما فإن بدا منهما كِبَر'' وحاجة'' فينبغي أن يقابلا بالمبالغة الشديدة في الــذل والتواضـــع المُبيــن في بذل العون ؛ لأنهما ما اعتادا أن يَمُدَّا أيديهما للمســاعدة وما ألِفا أن يبوحا بالمعاونة ، وهما اللذان عاشا أبد الدهر يُعطيان ويمنحان ويُشْفقان !

ويُفسِّر " ابن عاشور " العلاقة بين خفض جناح الطائر والتواضـــــــع

---

(١) المطففين /٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) الإسراء ٢٤/ ، وفي اللسان : (أي تواضع لهما ولا تتعزز عليهما) ٢ / ١٢١١ .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٢٥

(٤) الحجر/ ٨٨

(٥) التسهيل ٢ / ١٧٠ ، وانظر كذلك الكشاف ٢ / ٣٥٧ ، والبيضاوي ١ / ٥٦٨ .

(٦) انظر أبا السعود ٥ / ١٦٦

بقوله : (وصيغ التعبير عن التواضع بتصويره في هيئة تذلل الطائر عندما يعـتريه خـوف من طائر اشد منه إذ يخفض جناحه متذللاً) (١) ويبدو أن رأي أبـي السعود أرجح من رأي " ابن عاشور " في دلالة الخفض ، فبينما يـرى الأول " الخفـض " لداعي الشفقة ، والحَدَب ، والتربية ، يراه الآخر لداعي الخوف ، والأول ألصق بالدلالة وأوفق .

ومـن دلالات الأمـر المجازية : الدعاء ، إذا استُعمل في طلب الفعل على سبيل التضرُّع نحو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْرًا ﴾ (٢)

أي اصبب علينا الصبر صبًا حتى يعمنا في جمعنا وفي خاصة نفوسنا لـنقوى علـى قتال أعدائك ، ومناط **المبالغة** في لفظ " **الإفراغ** " حيث شدة الإنـزال للصبر وقوته قال الشَّريف الرَّضيَ : (وفي قوله أفرغ **زيادة فائدة** علـى قولـه : أنـزل ؛ لأن الإفـراغ يفيد سعة الشيء وكثرته ، وانصبابه وسرعته) (٣) وقال أبو السعود : (وفي التوسل بوصف الربوبية المُنبئة عن التبليغ إلى الكمال وإيثار الإفراغ المُعرب عن **الكثرة** وتنكير الصبر المفصح عـن التفخـيم مـن الجزالة ما لا يخفى) (٤) وفي لفظ " الإفراغ " أيضـًا شـعور ’’ بمدى الخوف ، الذي علق بالمؤمنين فهم الذين قالوا " لا طاقة لنا الـيوم بجالوت وجنوده " (٥) فاحتاجوا لكي يثبتوا أمام العدو إلى صبر غير عـادي ، صبرٍ بلا حدودٍ ، صبرٍ مُكَثَّف " فهو الوحيد الذي باستطاعته أن ينتشـلهم بما هو فيه من الخوف ، ولذا تضرعوا في طلبهم ، والتمسوا ثلاثة مطالـب فيها الخلاص مما ألـمّ بهم ﴿ رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وانْصُرْنا على القومِ الكافرينَ ﴾ (٦)

١- الصبر الشديد . ٢- تثبيـت الأقـدام حتى لا يفروا .
٣- الغاية المبتغاة : النصر على الأعداء .

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٧ ١٥ / ٧٠

(٢) الـبقرة / ٢٥٠ ، فـي اللسـان : (الإفراغ : الصَّبُّ ، وفرَّغ عليه الماء ، وأفرغه : صبَّه ، حكـى الأوّل : ثَعْلب وانشد : فرّغْنَ الهَوَى في القلب ثم سَقَيْنَه صُبابات ماء الحُزْن بالأعيُن النُّجل

وفي التنزيل : " ربنا أفرغ علينا صبراً " ، أي اصبب) لسان العرب ٥ / ٣٣٩٦ .

(٣) تلخيص البيان / ٣٨

(٤) أبو السعود ١ / ٢٤٤

(٥) البقرة/ ٢٤٩ (٦) البقرة / ٢٥٠

ومن جميل الدعاء الذي بدأ فيه إظهار اللُّجأ وصدق التضرع ، مع ما فيه من تحقق الإجابة دعوة نبي الله إبراهيم ــ عليه السلام ــ التي ما زالت شاهدة أمام العيان إلى يومنا هذا وإلى ماشاء الله في قوله تعالى :

﴿ فاجعلْ أفئدةً من النَّاس تَهْوِي إليهم وارزقْهُم من الثَّمراتِ لعلهم يَشْكُرون ﴾ (١) .

ومن أسرار التركيب : لفظ " أفئدة " ولم تأت " قلوبًا " ؛ لأن الأفئدة تحمل معنى التوقد ، ولفظ " تَهْوِي " للجد والإسراع ، لأنه قد يُوجد "أناس" ذوو أفئدة مُشتاقة بَيْد أنهم غير جادين ولا نشطين ، والتعدية بحرف الجر " إليهم " لتضمين الفعل " تَهْوِي " معنى تميل وتحن وتنزع ، ووجود حرف الجر (من) في (من الناس) للتبعيض قال الزمخشري : (ويدل عليه ماروي عن مجاهد لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس ، والروم وقيل لو لم يقل (مِن) لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند ويجوز أن يكون (مِن) للابتداء (٢) كقولك القلب مني سقيم تريد قلبي ، فكأنه قيل أفئدة ناس) (٣) .

ومصدر **المبالغة** في روعة التصوير " أفئدة" مُطلَقة" " ، تلك الصورة الاستعارية العجيبة المُبينة للشوق المهاجر والحنين المغادر ، إذ المقصود الناس القاصدة بيت الله الحرام (وخُصَّت الأفئدة بالذكر ؛ لأن القلوب سلاطين الأعضاء ، فإذا حنَّت إليهم القلوب ، سعت لهم الأجسام

---

(١) تمام الآية " ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون " إبراهيم ٣٧ .

قال الراغب الأصفهاني : (الفؤاد كالقلب لكن يقال له : فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد : أي التوقد ، يقال : فأدت اللحم : شويته ولحم فئيد : مشوي) المفردات / ٦٤٦ وقال عن "تَهْوِي" (الهُوِيّ : سقوط من علو إلى سُفل ... والهُوِيّ : ذَهَاب في انحدار ، الهَوِيُّ : ذَهَاب في ارتفاع) المفردات / ٨٤٩ وقال ابن منظور : (قوله عز وجل : " فاجعل أفئدةً من الناس تَهْوِي إليهم وارزقهم من الثمرات " فيمن قرأ به إنما عدَّاه بإلى لأنه فيه (معنى تميل) ، والقراءة المعروفة تَهْوِي إليهم أي ترتفع والجمع أهواء ، وقد هويه هو ، فهو هَوٍ ، وقال الفرَّاء : معنى الآية يقول : اجعل أفئدة من الناس تريدهم ، كما يقول : رأيت فلانًا يَهْوِي نحوك ، معناه يريدك ، قال : وقرأ بعض الناس تَهْوِي إليهم ، بمعنى تَهواكم) اللسان مادة (هـ . و . ي) .

(٢) فسَّر " ابن عاشور " (من) تفسيرًا ثالثًا بأنها " بيانية (و " من " بيانية لا تبعيضية ، إذ لا طائل تحته . والمعنى : فاجعل أناسًا يقصدونهم بحبات قلوبهم) التحرير والتنوير مجلد ٧ ١٣ / ٢٤٢.

(٣) الكشاف ٢ / ٣٠٤

قهـرًا) [1] . أضـف إلـى هذا عطاء الفعل المضارع " تَهْوي " في تجدده واسـتمراره ، لتستحضر تلك الصورة على الدوام ، فهي ممتدة بلا توقف ، لأنها ليست مختصة بزمانٍ دون زمان ، ولا بأناسٍ دون أُناس .

ملاحظات على دراسة أسلوب الأمر :

١- تمـت دراسة سبعة نماذج من نماذج القرآن الكريم في الأمر الفني كلها جاءت على صيغة واحدة هي صيغة فعل الأمر .

٢- أغـراض أسـلوب الأمـر التي وردت هي : التعجيز ، والتهديد ، والإهانـة ، والتواضـع والدعـاء ، أمـا التعجيز والإهانة والتهديد فلجماعة المكذبين وأما التواضع والدعاء فلجماعة المؤمنين .

٣- مـن سياقات الأمر : الدعاء : وذلك إذا استُعمِل على سبيل التضرع والخضـوع ، فيخرج كلية عن نطاقه الأصلي القائم على الاستعلاء إلـى نطاق تقابلي تمامًا مبناه على التذلل والتواضع ، وقد جاء في سـياقين سـياق من جماعة المؤمنين " ربنا أفرغ علينا صبرًا " [2] والسـياق الآخر من نبي الله إبراهيم ــ عليه السلام ــ " فاجعل أفئدة من الناس تَهْوي إليهم ... " [3] .

٤- فـي قولـه تعالى " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " [4] أمر حقيقي ، واجب الامتثال ، بَيْد أنه صار مجازيًا عن طريق التصوير الرائع ، وإبداء هذا التواضع الرفيع .

---

(١) الصاوي على الجلالين ٢ / ٢٤٢ .

(٢) البقرة / ٢٥٠ .

(٣) إبراهيم / ٣٧ .

(٤) الإسراء / ٢٤ .

جـ – توظيف النهي للمبالغة :

النهـــي : هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء كالأمر ، وله صيغة واحدة ، هي الفعل المضارع المقترن بلا الناهية في كل صور النهي الحقيقية والمجازية [١] .

ومـــن دلالاته الجمالية القائمة على التجوز والاتساع : التهديد والنصح والإرشاد والتوبيخ والتأنيب والتمني والتيئيس والالتماس والدعاء .... الخ .

ومـــن تراكيـــبه الفنية البليغة التي تدركها فطنة القارئ ، ويستشعرها بحسِّـــه اللغوي ، وتذوقه الجمالي للآيات القرآنية توظيفه **للمبالغة في الزجر**، كما في قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا ﴾ [٢]

أي لا يســـفك بعضكم دم بعض ، والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزجـــر قـــال الألوسي : (" لا تقتلوا أنفسكم " أي لا يقتل بعضكم بعضـــًا ، وعـــبَّر عـــن البعض المنهي عن قتلهم بالأنفس **للمبالغة في الزجر** " وقيل : المعنى لا تخاطروا بنفوسكم في القتال فتقاتلوا من لا تطيقونه) [٣] .

ثـــم جاءت الفاصلة التعليلية لعدم القتل ، سواء أكان للغير أو للنفس أو حتى لمجرد تعرضها للمخاطر المهلكة : " إن الله كان بكم رحيما " .

قـــال أبـــو حيان : (حيث نهاكم عن إتلاف النفوس .. وبَيَّن لكم جهة الحل التي ينبغي أن يكون قوام الأنفس وحياتها بما يكتسب منها ، لأن طيب الكســـب ينبنـــي علـــيه صلاح العبادات وقبولها .. وقيل : رحيمـــًا حيث لم يكلفكم قتل أنفسكم حين التوبـــــــة ، كما كلـــَّف بني إسرائيل قتلهم أنفسهم ،

---

(١) انظر الإيضاح / ١٧٨ .

(٢) النساء/ ٢٩ .

(٣) روح المعانـــي ٥ / ١٦ ، والخلاصـــة : انقسمت أقوال المفسرين حيال هذه الآية إلى ثلاثة أقسام : الأول : وهـــو الذي أجمع عليه المفسرون وعليه مدار المبالغة لا يقتل بعضكم بعضـــًا . انظر التسهيل ١ / ١٣٩ ، والثاني : قتل النفس " الانتحار " وهو ظاهر اللفظ وقد حملها عمرو بن العاص على ذلك ، ولـــم ينكره رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمعه . انظر التسهيل ١ / ١٣٩ ، والبحر المحيط ٣ / ٢٤٢ ، والثالـــث : بمعـــنى لا تلقـــوا بأيديكم إلى التهلكة ، فتقاتلوا من لا تطيقون قتاله . انظر البحر المحيط ٣ / ٢٤٢ ، وروح المعاني ٥ / ١٦ .

وجعل ذلك توبة لهم وتمحيصًا لخطاياهم) [١].

ومنه **الإهانة البالغة** كما في قوله تعالى : ﴿ اخْسَئوا فيها ولا تكلمون ﴾ [٢] وهذا جواب من رب العالمين على طلبهم في قوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قومًا ضالين * ربَّنا أَخْرِجنا منها فإن عُدْنا فإنّا ظالمون ﴾ [٣].

وفي السياق القرآني مزج" بين الأمر والنهي ، وهما دالان معًا على مدى الإهانة والإبعاد للكافرين ، يقول " الزمخشري " مبينًا تلك المهانة المُزلة المُصَوَّرة بحالة الكلب المُنزجر المذلول ثم هذا السكوت المُخزي سكوت الأذلاء المهينين : { (اخسئوا فيها) ذلوا فيها ، وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زُجرت ، يُقال خسأ الكلب وخسأ بنفسه (ولا تكلمون) في رفع العذاب ، فإنه لا يرفع ولا يخفف ، قيل هو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يَفْهمون ولا يُفْهمون } [٤].

وسبيل المبالغة فيما وصل إليه الكافرون من الذلة حيث بلغوا الغاية في المهانة فما أضحت تصدر منهم حروف .. ولا كلمات ، وإنما أصوات منكرة شهيق وزفير وعواء .. أرأيت كيف بلغ بهم الحال المَشينة ، ووصل بهم الأمر المُهلِك ، وحطّت بهم أعمالهم الرديئة فكانوا من الخَاسرين ؟ !

---

(١) البحر المحيط ٣ / ٢٤٢ .

(٢) المؤمنون/ ١٠٨ ، قال ابن منظور : (خسأ : الخاسئ من الكلاب والخنازير والشياطين : البعيد الذي لا يُترك أن يدنو من الإنسان . والخاسئ : المطرود . وخسأ الكلب يخسؤهُ خَسْأً وخُسوءًا ، فخسأ وانخسأ : طرده . قال : كالكلب إن قيل له اخسأ انخسأ أي إن طَرَدْتَه انطرد . الليث : خسأت الكلب أي زجرته فقلت له اخسأ ، ويُقال : خسأتُهُ فخسأ أي أبعدتُهُ فَبَعُد .. وقال الزجاج في قوله عز وجل : " قال اخسئوا فيها ولا تكلمون " : معناهُ تباعد" سَخَطٍ . وقال الله تعالى لليهود : " كونوا قردةً خاسئين " البقرة / ٦٥ ، أي مدحورين وقال الزجاج : مُبْعَدين) لسان العرب ٢ / ١١٥٥ ، ١١٥٦ مادة خ س أ ، وقال الراغب الأصفهاني : { خسأتُ الكلب فخسأ ، أي : زَجَرْتُهُ مُستهينًا به فانزجر ، وذلك إذا قلت له : اخسأ ، قال تعالى في صفةِ الكفّار : (اخسئوا فيها ولا تكلمون) } المفردات / ٢٨٢ .

(٣) المؤمنون /١٠٦ ، ١٠٧ .

(٤) الكشاف ٣ / ٥٧ ، وانظر التسهيل ٣ / ٥٧ ، والبحر المحيط ٦ / ٣٨٩ .

ومنه النهي عن **المبالغة في الاتفاق والإمساك** نحو قوله تعالى :

﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (١) .

فثمَّ نهي وقع مرتين الأولى عند الإمساك على طريقة التصوير : " لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك " حيث جاء النظم القرآني مصورًا البخيل المُقتر بمن حبست يده عن الإعطاء ، وشُدَّت إلى عنقه بحيث لا يقدر على مَدِّها ، فثمَّ وصفان ، كلٌ منهما كافٍ لإظهار البخل ، وهو أن يده مضمومة ومغلولة أيضًا فلمَّا اجتمعا على هذا النحو ، دلاَّ دلالة قاطعة على منتهى البخل ونهاية الإمساك ومن هنا تمثَّلت **المبالغة** في الوصول بالمعنى إلى أقصى مراميه من البخل ، ثم في التصور البديع لصورة هذا البخيل في غُل يده ، وضمها إلى عنقه ، ثم أخيرًا في البعد النفسي لصورة هذا الشخص وإبراز أبعاده الداخلية في صورة المحسوس المشاهد للعيان . قال ابن عاشور عن تلك الصورة (هو تمثيل'' مبنيٌّ على تخيُّل اليد مصدرًا للبذل والعطاء ، وتخيُّل بسطها كذلك ، وغُلِّها شحًا ، وهو تخيُّل معروف'' لدى البلغاء والشعراء .. قال الأعشي :

يَدَاك يَدَا صِدْقٍ فكفٌّ مقيَّدةٌ ∴ وكفٌّ إذا ما ضُنَّ بالمال تنفقُ

.. فجاء التمثيل في الآية مبنيًا على التصرف في ذلك المعنى بتمثيل الذي يشح بالمال بالذي غُلَّت يده إلى عنقه ، أي شُدَّت بالغُل ، وهو القيد من السير يُشَدُّ به يد الأسير ، فإذا غُلَّت اليدُ إلى العنق تقدَّر التصرف بها

---

(١) الإسراء/ ٢٩ ، قال ابن منظور : (" ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك " تأويله لا تمسكها عن الإنفاق ، وقد غَلَّه يَغُلُّه) لسان العرب مادة (غ . ل . ل) . وقال الراغب الأصفهاني : (الغُلُّ : مختصٌ'' بما يُقيَّد به فيجعل الأعضاء وسطه ، وجمعه أغلال ، وغَلَّ فلان'' : قُيِّد به .. وقيل للبخيل : هو مغلول اليد) المفردات / ٦١٠ .

فتعطّل الانتفاع بها فصار مصدر البذل مُعطّلاً فيه) [١] .

النهـــي الآخر عند الإنفاق " ولا تبسطها كل البسط " هذه هي الصورة الأخـــرى المقابلة ، إنها صورة المُسرف المُبذر ، ومنشأ المبالغة فيه أن يبلغ البســـط عنده الغاية والنهاية " كل البسط " أي البسط كـــله الذي لا بســـط بعـــده [٢] وقـــال ابن جُزَي : (استعارة في معنى غاية الجود) [٣] حيث ترتسم هذه الصورة في ذهنك لهذا المُسرف في صورة من بسط يده في أوسع ما يكون البسط حيث لم تَعُدْ يده تُمسك شيئـــًا .. أو تحفظ شيئـــًا !

ثـــم تجيء النهاية الحتمية لكلا الفريقين ولكلتا الحالتين " فتقعد ملومـــًا محسورًا " فالمصير المنتظر الذم والحسرة ، وفيه توجُّه للتوسط بين الإفراط والتفريط فخير الأمور الوسط [٤] .

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٧ ١٥ / ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) انظر التحرير والتنوير مجلد ٧ ١٥/٨٤ .

(٣) التسهيل ٢ / ١٧٠ .

(٤) وهـــو المطـــابقُ لقولـــه تعـــالى : (والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقتُروا وكان بين ذلك قَوَامـــًا) الفرقان/ ٦٧

ومـــن جمـــال التركيـــب هذه المفارقة البديعة بين حالــــيَ المُسْرِف والمُقْــتر ، بإبـــراز المعنى بالتضاد عن طريق تصوير المعنوي بالمحسوس المُشَــاهَد (وقد طابَق بينهما أبو تمام) ، فقال في المعتصم :

تعوَّدَ بَسْطَ الكفِّ حتى لو أنه ∴ ثناها لقبضٍ لم تُجبه أنامله [١]

ومن المبالغة في النهي قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [٢] .

أي لا تدنـــوا مـــن الزنا وهو أبلغ من " لا تزنوا " لأنه يفيد النهي عن مقدمـــات الزنا كاللمس ، والقبلة ، والنظرة ... الخ مما يجر إلى الزنا فالنهي عـــن القرب أبلغ من النهي عن الفعل [٣] وفي التركيب يبدو التكثيف ظاهرًا حـــول خطورة جريمة الزنا ، التي من أجلها تم النهي عن كل ما يقرِّب إليها أو يدعو إلى فعلها سدًا للزرائع ومبالغة في عدم اقتراب الذنب .

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٨ .

(٢) الإسراء/ ٣٢ .

(٣) النهي عن قربان فعل الشيء أبلغ من النهي عن فعله ، وجاء ذلك في القرآن كثيرًا مثل :

١- " ولا تقربا هذه الشجرة " البقرة/ ٣٥ ، الأعراف/ ١٩ .

٢- " تلك حدود الله فلا تقربوها " البقرة/ ١٨٧ .

٣- " فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يَطْهُــرن " البقرة /٢٢٢ .

٤- " لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى " النساء /٤٣ .

٥- " ولا تقربوا الفواحش " الأنعام/ ١٥١ . (== بعده ٦)

ملاحظات على دراسة أسلوب النهي :

١- تناولت الدراسة ستة نماذج من نماذج القرآن الكريم في النهي الفني (الحقيقي والمجازي) كلها جاء على الصيغة الوحيدة ، الفعل المضارع المُصدَّر بـ (لا الناهية) .

٢- أغراضه التي وردت هي : الزجر ، والإهانة ، والتيئيس ، والنصح ، والالتماس ، والنهي الحقيقي عن الزنا بالمبالغة في الابتعاد " ولا تقربوا " . أما الزجر والنصح والنهي الحقيقي فللمؤمنين ، وأما الإهانة والتيئيس فللكافرين .

٣- السكاكي ومن بعده الخطيب القزويني في أسلوب الأمر تحدثا بالتفصيل عن وظائفه وتراكيبه المجازية ، أما هنا في أسلوب النهي فقد أغفلا الحديث عن المعاني الفنية للنهي .

٤- النهي الحقيقي لا يخلو من الفنية والمبالغة في القرآن كما في قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَقْرَبوا الزِّنا﴾ [1] . كما بينتُ آنفـًا .

٥- من التراكيب الفنية التي وردت في أسلوب النهي : المزاوجة بين الأمر والنهي كما في قوله تعالى :

٦- ==) " ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن " الأنعام/ ١٥٢ ، الإسراء/ ٣٤ .

٧- " إنما المشركون نجس'' فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا " التوبة /٢٨

انظر دراسات لأسلوب القرآن ٢ / ٥٢٨ .

---

(١) الإسراء/ ٣٢ .

﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ [١] إعلانًا للإهانة البالغة للكافرين حيث ينزجرون انزجار الكلب ويسكتون سكوت الأذِلاء .

كذلك المفارقة العجيبة بين المسرفين والمُقترين في قوله تعالى :

﴿ ولا تجعل يدك مغلولة ً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا ﴾ [٢]

د- توظيف التمني للمبالغة :

التمني : هو طلب حصول شيء محبوب **لا يتوقع حصوله** : إما لكونه **مستحيلا** ً ، وإما لكونه **بعيد** التحقق والمنال قال الخطيب القزويني عن التمنى : { وأنواعه كثيرة (يقصد الإنشاء الطلبي) منها التمني ، واللفظ الموضوع له : " ليت " ، ولا يُشترط في التمني الإمكان ، تقول : ليت زيدًا يجيء ، وليت الشباب يعود } [٣] وذكر ابن هشام أن التمني (يتعلق بالمستحيل غالبًا كقوله :

فياليت الشباب يعود يومًا .·. فأخبره بما فعل المشيبُ

وبالممكن قليلا ً) [٤] . ومن نماذج ما هو مستحيل قوله تعالى :

﴿ يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزًا عظيمًا ﴾ [٥] لأن الزمن قد مضى ومن المستحيل إرجاعه وكذا قوله تعالى : ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنتُ ترابًا ﴾ [٦] ومما هو بعيد التحقق والمنال قوله تعالى :

﴿ يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ﴾ [٧] فإن كان **منتظر الحصول على قريب الوجود** كان ترجيًا وليس تمنيًا ويُعبَّر فيه بعسى ولعل .

---

(١) المؤمنون/ ١٠٨ .

(٢) الإسراء / ٢٩ .

(٣) الإيضاح / ١٦٤ .

(٤) مغني اللبيب / ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٥) النساء/ ٧٣ .

(٦) النبأ / ٤٠

(٧) القصص /٧٩

وقـــال الراضـــي .. : وفـــي " ليت " معنى تمنيت وفي " لعل " معنى ترجيت . وماهية التمني غير ماهية الترجي وهي استعمال التمني في الممكن والمحـــال ، واختصـــاص الترجي بالممكن ؛ وذلك لأن ماهية التمني محبة حصـــول الشيء سواء كنت تنتظره وترتقب حصـــوله أو لا . والترجي : ارتقاب شيء لا وثوق بحصوله فمن ثم لا يُقال : لعل الشمس تغرب ، فيدخل في الارتقاب الطمع والإشفاق . فالطمع : ارتقاب شيء محبوب نحو : لعلك تعطيـــنا . والإشـــفاق : ارتقـــاب المكروه نحو : لعلك تموت الساعة . وفي المطـــوّل : " يجب أن لا يكون للتمني توقع وطماعية في وقوعه وإلا صار ترجيًا " (١) .

ومـــناط **المـــبالغة** فـــي التمني ، إنما يتأتى من قِبَل تصوير رغبـــة المتمني ، إذ يُجسد التمني أقصى حاجاته وآماله .

وألفـــاظ التمني أربعة : واحدة أصلية وهي " ليت " ــ وقد مثلت لها ، وثلاثة نائبة عنها هي :

١- هـــل : نحـــو قوله : ﴿ فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لنا ﴾ (٢) ويبرز بها المتمني في شكل المستفهم عنه الذي لا يجزم بانتفائه .

٢- لو : نحو قوله تعالى : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لنا كَرَّةً فنكونَ من المُؤمنين ﴾ (٣)

وذلـــك لأن معـــنى (لـــو) الذي وضعت له في أصل اللغة أن تكون حـــرف امتناع لامتناع ، أي : امتناع الجواب لامتناع الشرط ، فأبرز التمني وهـــو الأمـــر الممكن ، وإن كان بعيد المنال في صورة الأمر الممتنع تمامًا مبالغة في المعنى وإشعارًا بعزة المُتَمنَّى .

٣- لعـــل : ويتمنى بها إذا كان المرجو بعيدًا ميئوسًا من حصوله ، فصار شبيهًا بالمُحـــــالات والممكنات التي لا طمـــع في حصولها نحـــو قوله تعالى :

---

(١) انظر دراسات لأسلوب القرآن ٢ / ٧٠٣ .

(٢) الأعراف / ٥٣ .

(٣) الشعراء / ١٠٢ .

﴿ وَقَـالَ فِـرْعونُ يا هامانُ ابنِ لي صَرْحًا لَعَلِّي أبلغُ الأسبابَ أسبابَ السمواتِ فأطلعَ إلى إله موسى ﴾ (١).

إضـافة إلى هذه الأدوات يتمنى بهلَّا وأَلا ولولا ولوما ، وهي ألفاظ مركبة من هل ولو مع لا وما .

وتنـتقل دلالـة التمني من المستوى السطحي إلى المستوى العميق ، فتمـنح المتلقي مزيدًا من الدلالات الفنية ، والتراكيب البلاغية وتتآزر دلالة التمني مع دلالة المبالغة لا سيما في منطقة المستحيل والأمر الممتنع وكذلك الأمر بعيد المنال حيث التصورات المتناهية في التخيُّـل سواء أكانت ممكنة أو غـير ممكـنة ، وكلاهما أمر '' مثرٍ للخيال ، مغنٍ للوجـدان ، مُحرِّك للأذهان من خلال إثمار تلك الأحداث اللافتة والغنية بالجذب والجِدَّة من جهة والخَرْق للعادة من جهة أخرى .

ومن صوره البديعة قوله تعالى :

﴿ وَقَـالَ فِـرعونُ يا هامان ابن لي صَرْحًا **لَعَلِّي أبلغُ الأسبابَ أسبابَ السمواتِ** فأطلعَ إلى إله موسى ﴾ (٢).

انتقلت دلالة " لعل " ــ هنا ــ الدالة على الإمكان ، وقرب المنال إلى دلالة " ليت " الدالة على المُحال وبُعد المنال حسب اقتضاء المعنى ، فقد قال " فرعون " لوزيره " هامان " ابن لي قصرًا عاليًا وبناءً شامخًا ، قال هذا علـى سبيل المراوغة (٣) ، وإيهام العامة أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحـيد قـال أبو حيَّان (يا هامان ابن لي صَرْحًا) حيدة عن محاجـة موسـى ورجوع إلى أشياء لا تصح ، وذلك كله لما خامره مـن الجـزع ، والخـوف ، وعدم المقاومـة ، التعرف أن هلاكـه وهلاك قومـه على

---

(١) غافر/ ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) غافر /٣٦ ، ٣٧

(٣) على الرغم أن فرعون كان يوقن أنه إله ، فقد أوهم الناس أنه قادر على الوصول إلى أي مكان حتى ولـو كـان في السماء ليُقاسم رب موسى ــ حاشا لله ــ الربوبية ، إلا أنه ــ هنا ــ كان مكشوفـًا مع وزيـره بـلا غطاء ، فجاء التمني في سياق حديثه كأي بشر وليس كإله ومن ثَمَّ كانت المبالغـة ! والله أعلم .

يـد موسى وأن قدرته عجزت عن التأثير في موسى . هذا على كثرة سفكه الدماء .. قال السُّدي : " الأسباب : الطرق " وقال قتادة : " الأبواب " . وقيل لعلـه عَني يجد مع قربه من السماء سببًا يتعلق به .. وأبهم أولاً الأسباب ثم أبـدل مـنها ما أوضحها . والإيضاح بعد الإبهام يفيد تفخيم الشيء ؛ إذ في الإبهـام تشوُّق للمراد وتعجب من المقصود ، ثم بالتوضيح يحصل المقصود ويتعيـن .. وقـرأ حفص (فأطلعَ) بنصب العين . وقال أبو القاسـم بن جـبارة ، وابـن عطية : " على جواب التمني " . وقال الزمخشري : " على جواب الترجي تشبيهًا للترجي بالتمني .. وقد فرَّق النحاة بين التمني والترجي فذكـروا أن التمني يكون في الممكن والممتنع والترجي يكون في الممكن . وبلـوغ أسـباب السـموات غير ممكن ، لكن فرعون أبرز ما لا يمكن في صورة الممكن تمويهًا على سامعيه) [1] . فهذا الفرعون طلب أمرًا غاية في الـبُعد ، ونهايـة في التصور واستحالة في الحدوث والتوقع ، إذ بالغ مبالغة فاقت قدرته ، بل وقدرة البشر أجمعين ، فمهما بلغ بناؤه من العلو فلن يبلغ أركـان السـماء ولا قريـبًا من ذلك ، الأمر الذي من أجـله تم العـدول عـن " لعل " إلى " ليت " [2] .

ومنه قوله تعالى : " يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ " [3] .

لمـا رأي ضـعاف الإيمـان خروج قارون في زينة عظيمة بأتباعه الكثيريـن رُكـبانًا متحليـن بملابس الذهب والحرير ، على خيول موشحة بالذهـب انبهروا بالزينة والزخرف وقالوا: يا ليت لنا مثل هذا الثراء والغنى الـذي أعطيه قارون قال الزمخشري :(كان المتمنون قومًا مسلمين ، وإنما تمنوه على سبيل الرغبـة في اليسـار والاستغناء كما هو عـادة البشـر

---

(١) البحر المحيط ٧ / ٤٤٦ .

(٢) ومنه ما يكون على عكس هذا أن تستخدم " ليت " في الأمور الممكنة وليست المستحيلة مثل قول أبي فراس يخاطب سيف الدولة :

فليتك تحلو والحياةُ مـريرة ∴ وليتك ترضى والأنام غِضَابُ

وليت الذي بيني وبينك عامر ∴ وبيني وبين العالمين خـَراب

فهذه أمور ممكنة ، وليست مستحيلة ، ولكن الشاعر أبرزها في صورة الشيء المستبعد مبالغة في تعلقه للممدوح فعبر بأداة التمني . انظر فن البلاغة / ١٤٩ .

(٣) تمـام الآية : " قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتـي قارون إنه لذو حظ عظيم " القصص /٧٩

وعن قتادة تمنوه ليتقربوا به إلى الله وينفقوه في سبل الخير وقيل كانوا قومًا كفارًا) [1] .

وأيًا ما كان الأمر ، سواء أكان المتمنون مسلمين أم كفارًا ، فقد أبعدوا في التمني ، وأغربوا ، وبالغوا في طلبهم مبالغة عظيمة ، لأن " قارون " لم يكن غنيًا فحسب ؛ بل هو أثرى الأثرياء ، وأغنى الأغنياء بدليل قوله تعالى : ﴿ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴾ [2] . وفي هذا ما فيه من تصوير الغنى الفاحش الذي ليس له مثل في الأولين والآخرين بهذا الثقل ، والعَرَض ، والكثرة والاتساع .

إنه تطلُّع واستشراف لغاية لا تُدرَك ، ولجاهٍ لا يُنال ، إذ لم يُعْطِ الله هذا العطاء لأحد إلا لقارون ، فكانت هذه الوقفة منهم وقفة المأخوذ المدهوش ، المُغْتر بالزينة ، المتكالب عليها مهما كلفه من ثمن ، لذا لمَّا خُسِف به ، كانت ضربةً قاصمةً قاضية ، ردتهم إلى صوابهم وكشفت عنهم زيف ما جرَّتهم أمانيُّم الباطلة ﴿ وأصبح الذين تَمَنَّوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يُفلح الكافرون ﴾ [3] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُرَدُّ فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ [4] .

يسأل تاركو أتباع الرسول يوم القيامة : هل يشفع لنا شافع في الخلاص من العذاب أو نرد إلى الدنيا مرة أخرى لنعمل عملاً صالحًا [5] .

وثمَّ مطلبان لهؤلاء التعساء بلغوا فيهما مبلغًا عظيمًا لا يُتَصوَّر ، فالأول تمنى وجود شفعاء ليشفعوا لهم ، وقد كفروا بالله وآمنوا بالطاغوت

---

(١) الكشاف ٣ / ١٧٩ .

(٢) القصص/ ٧٦ .

(٣) القصص / ٨٢ .

(٤) تمام الآية : " هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون " الأعراف/ ٥٣ .

(٥) انظر الكشاف ٢ / ٦٥ ، والبحر المحيط ٤ / ٣٠٨ .

وظـنوا الأصـنام آلهةً قادرة شافعة ، فإذا هي هباء منثور ، والآخر العودة مـرة أخـرى إلى الدنيا لعمل الصالحات وهذه بدورها احتوت على أمرين بـالغوا فيهما أيضًا ، فمجرد العودة أمر مستحيل فقد حكم الله بين العباد ألا عـودة إلى الدنيا بعد الموت حتى الشهيد ذي المنازل يتمنى العودة إلى الدنيا لما رآه من الجزاء الحسن فلا يُجاب لطلبه للعلة نفسها ، الأمر الثاني : ظنهم أنهـم سـيعملون أعمـالاً صالحةً ، وأنهم بإمكانهم تغيير طبائعهم الفاسدة وأخلاقهم المُعْوَجَّة ، فيعملون أعمالاً صالحة غير تلك الأعمال الطالحة التي غرقوا فيها وهذا مُحال لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١) .

إنـه التمنـي الكاشف عن خيبة الأمل التي حلّت في قلوبهم ، فراحوا يتخـيلون أمورًا مستحيلة هروبًا من الواقع المرير والندامة البادية والخسارة الفادحـة .. إنهـا خفقـات نفسية عنيفة تهزهم .. تزلزلهم أين المفر ؟ ! ما المخـرج ؟ ! .. شفاعة مستحيلة .. وعودة مرفوضة ، وهنا يأتي ختام الآية ليكشـف لنا عما آلوا إليه من الخسران والبوار : ﴿ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

ومن بديع تراكيبه التي وُظّف فيها للمبالغة قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ (٢) .

قال أبو حيان : في قوله تعالى : ﴿يا ليتني لم أوت كتابيه ﴾ (لما رأي فـيه قـبائح أفعاله وما يصير أمره إليه تمنّى أنه لم يعطه وتمنى أنه لم يدر حسـابه ، فإنه انجلى عنه حسـابه عن ما يسوءه فيه ، إذ كـان عليـه لا لـه (ياليـتها) أي الميتة التي متها في الدنيا (كانت القاضية) أي القاطعة لأمـري فلم أبعث ولم أعذب ، أو يا ليت الحالة التي انتهيت إليها الآن كانت الموتـة التي متها في الدنيا ، حيث رأي أن حالته التي هو فيها أمَرُّ مما ذاقه من الموتة ، وكيف لا وأمره آل إلي عذابٍ لا ينقطع) (٣) .

---

(١) الأنعام / ٢٨ .

(٢) الحاقة /٢٥ ــ ٢٧

(٣) البحر المحيط ٨ / ٣١٩ .

إنها وقفة أخرى للكافرين ملؤها الحسرة والأسى واليأس المديد السياق هنا يُلقى بظلاله على المتلقي ليكشف عن الافتضاح والتفجع العميق إنه ليُبدي الإيحـــاء النفســـي لهؤلاء ، ويبدو أنها مواقف متتابعة ومشاهد تترى لأولئك المتحسِّرين الكسيرين الكئيبين .

يكشـــف الســـياق ـــ أيضًا ـــ عن عمق الحسرة في تمنِّي عدم رؤيتهم للكـــتاب حيث الفضيحة والخزيّ من أعمالهم ، وهذا هو التمنِّي الأول ، وأما التمنِّـــي الآخـــر فهو تمنِّي الموت على الرغم من فظاعته ، وأهواله ؛ لأنهم رأوا مـــا هو أهول فيه وأفظع ، ومبعث المبالغة في المشهد الأول في عمق الحســـرة " لم أوت كتابية " حيث (الرنة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصـــلة الساكنة في ياء العلة قبلها بعد المد بالألف ، في تحزُّن وتحسُّر .. هـــي جزء من ظلال الموقف الموحـــية بالحسرة والأســـــى إيحاءً عميقـــًا بليغًا) (١) .

فـــي المشـــهد الآخـــر فـــي الغاية غير المدركة والنهاية المؤلمة غير المأمولة التي يتمناها إذ هو يتمنى الموت الآن ولم يكن شيء عنده قبلُ أكره له منه .

هـــ- توظيف التَّرجِّي للمبالغة :

التَّرجِّـــي : إنما يكون في القريب والمتوقع في المحبوب ، وكذا الإشفاق من المكروه ، ومن أدواته لعل وعسى .

ومن تراكيبه البليغة قوله تعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ (٢) .

---

(١) الظلال ٦ / ٣٦٨٢ .

(٢) تمـــام الآية " فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز " أو جاء معه ملك إنما أنت نذير " والله على كل شيء وكيل " هود/ ١٢ .

كـــان المشركون يقترحون على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ آيـــاتٍ تعنتـــًا لا استرشادًا ، لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم وهدايتهم ، وكانوا لا يعتدُّون بالقرآن ويتهاونون به وبغـــيره مما جاء به من البينات فكان يضيقُ صدر رسول الله ــ صلى الله علـــيه وسلم ــ أن يُلقي إليهم ما لا يقبلونه ، ويضحكون منه فحرَّك الله منه وهـــيجَّه لأداء الرســـالة وطرح المبالاة بردِّهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله تعـــالى : ﴿ فلعلـــك تارك'' بعض ما يُوحى إليك ﴾ أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم له وتهاونهم به [١] وقيل : معنى الكلام النفي مع استبعاد: أي لا يكن منك ذلك ، بل تبلغـــهم كل ما أنـــزل إليك [٢] و (الأحسن أن تكون على بابها بالنسبة إلى المخاطب) [٣] .

والظاهر أن تلك الاقتراحات السخيفة أصابت قدرًا من الضيق لرسول الله ــ صـــلى الله عليه وسلم ــ ولكن هل يبلغ هذا الضيق أن يترك من أجله تبليغ بعض ما يوحى إليه مخافة الاستهزاء والتكذيب من قبل المشركين ؟ ! لـــيس الأمر كذلك وحاشاه أن يفعل ، وإنما المعنى كما أشار القرطبي قائم'' على النفي والاستبعاد ، وجاء السياق بهذا النظم تهييجًا للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأداء الرسالة ، طرحًا للمبالاة باستهزائهم ، وعدم الالتفات إلى تكذيبهم .

وفـــي التركيـــب تصـــوير'' لمـــدى الكـــيد الذي كاد أن يبلغه هؤلاء المشـــركون ، وكشف'' للمحاولات المتكررة منهم لإثارة الضيق والكمد في صدره ــ صلى الله عليه وسلم ــ بَيْد أن اللافت أنه لم يستجب لتلك الدواعي والمؤثرات والبواعث قال الزمخشري : { " فإن قلت " لِمَ عدل عن ضيق إلى ضائق " قلت " ليدل على أنه ضيق'' عارض'' غير ثابت ، لأن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان أفسح الناس صدرًا } [٤] .

ومنه قوله تعالى :

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٢٠٩ .

(٢) انظر القرطبي ٤ / ٣٣٣٠ .

(٣) دراسات لأسلوب القرآن ٢ / ٦٠٣ .

(٤) الكشاف ٢ / ٢٠٩ .

﴿ فلعلك باخع'' نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ (١) .

أي فلعلك قاتل نفسك يا محمد ومهلكها غما وحزنا على فراقهم وإعراضهم عن الإيمان من أجل أنهم لم يؤمنوا بهذا القرآن حَسْرةً وأسفا عليهم قال أبو حيان : { " فلعلك باخع'' " لعل للترجي في المحبوب وللإشفاق في المحذور ، وقال العسكري .. هي موضوعة موضع النهي ، يعني أن المعنى لا تبخع نفسك ، وقيل : وُضعت موضع الاستفهام تقديره : هل أنت باخع'' نفسك ، وقال ابن عطية : تقرير وتوقيف بمعنى الإنكار عليه أي لا تكن كذلك . وقال الزمخشري شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به ، وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم برجل فارقته أحبته واعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم .. وتكون لعل للاستفهام قول كوفي والذي يظهر أنها للإشفاق أشفق أن يبخع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ نفسه لكونهم لم يؤمنوا ، وقوله (على آثارهم) استعارة فصيحة من حيث لهم إدبار'' وتباعد'' عن الإيمان وإعراض عن الشرع ، فكأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا فهو في إدبارهم يحزن عليهم .. و (أسفا) قال مجاهد : جزعًا ، وقال قتادة : غضبا ، وعنه أيضا : حزنًا ، وقال السُّدي : ندمًا وتحسرًا ، وقال الزجاج : الأسف المبالغة في الحُزن والغضب } (٢) .

وخلاصة القول أن التركيب حوى جملةً من المبالغات : الأولى في مدى إشفاق النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ على المعرضين لدرجة أنه يبذل جهدًا شاقا في دعوتهم لعله قاتل نفسه من أجلهم همًّا وغمًّا ، وما ذاك إلا لشرفه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ورحمته العظيمة وشفقته البالغة بأمته ، ولذلك جاء السياق تسلية وتهدئة لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ؛ لأن هؤلاء لا يستحقون أن يحزن عليهم ولذا جاءت الآية بعدُ ﴿ إنّا جعلنا ما على الأرضِ زينةً لها لنبْلوهم أيُّهم أحسن عَملاً ﴾ (٣) .

---

(١) تمام السياق " فلعلك باخع'' نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا * إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا " الكهف / ٦ ، ٧ .

(٢) البحر المحيط ٩٦/٦ (٣) الكهف /٧

أي دعهم فقد جعلنا ما على الأرض من زخرف ومتاع امتحانًا واختبارًا للخلق أجمعين فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر فلا يعظمنَّ عليك كفرهم فإنا سنحاسبهم ونجازيهم بأعمالهم .

والثانية : " على آثارهم " كأنهم من فرط إدبارهم والمبالغة في إعراضهم ليس لهم وجود إذ قد بعدوا بالكلية فلم يبق منهم إلا أثرٌ بعد عين .

والثالثة : في لفظ " أسفًا " الدال على المبالغة في الحزن والأسف . ومنه قوله تعالى :

﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

أي لعل ربكم أن يهلك فرعون وقومه ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم ، فينظر كيف تعملون بعد استخلافكم من الإصلاح والإفساد ، والغرض تحريضهم على طاعة الله ، وقد حقق الله رجاء موسى فأغرق فرعون وملَّك بني إسرائيل أرض مصر قال في البحر : (هذا رجاء من نبي الله موسى ــ عليه السلام ــ ومثله من الأنبياء يقوي قلوب أتباعهم ، فيصبرون على وقوع متعلق الرجاء ، ولاتنافي بين هذا الرجاء وبين قوله (والعاقبة للمتقين) من حيث إن الرجاء غير مقطوع بحصول متعلقه والإخبار بأن (العاقة للمتقين) واقعة لا محالة ؛ لأن " العاقبة " إن كانت في الآخرة فظاهر جدًا عدم التنافي ، وإن كانت في الدنيا ، فليس فيها تصريح بعاقبة هؤلاء القوم المخصوصين ، فسلك موسى طريق الأدب مع الله وساق الكلام مساق الرجاء ، وقال التبريزي : " يحتمل أن يكون قد أوحي بذلك إلى موسى فـ (عسى) للتحقيق ، أو لم يوح فيكون على الترجي منه) (٢) .

---

(١) تمام الآية : " قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون " الأعراف/ ١٢٩ ، والأصل في " عسى " الرجاء : طمعًا أو إشفاقًا ، و " عسى " من الله واجبة ، لاستحالة الطمع والإشفاق عليه تعالى ، وقالوا : كل " عسى " في القرآن للتحقيق ، وهم يعنون به الوقوع إلا قوله تعالى : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا) التحريم/ ٥ فهي للتخويف انظر دراسات لأسلوب القرآن ٨ / ٤١٥ .

(٢) البحر المحيط ٤ / ٣٦٨ .

لقد أعلمهم موسى ـ عليه السلام ـ أن استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء وتمحيص'' لهم ، ليس من أجل أنهم أبناء الله وأحباؤه ـ كما زعموا ـ وليس الأمر كذلك جُزافًا بلا غاية ولا دوامًا بلا توقيت ، إنه استخلاف للامتحان " فينظر كيف تعملون " بَيْد أن النكتة اللطيفة في السياق بلوغ دلالاته هذا المستوى من التمكين لبني إسرائيل عبر هذا الرجاء الشامل ، والأمل العريض ، في العزة بعد الإذلال ، والعلو بعد الانحدار ، والتملك بع الافتقار . فما كان يطمح بنو إسرائيل أكثر من الخروج من قبضة فرعون ، والخلاص من ظلمه ، والنجاة من بطشه وجبروته ويمكنك أن تدرك كُنه ذلك الجمال النبوي في الأسلوب ، والغاية الرفيعة في الدلالة من خلال هذا الترتيب المُتصوَّر لطموح وآمال بني إسرائيل حيال موقفهم من فرعون :

١- النجاة من بطش فرعون .

٢- زوال فرعون وجنوده والتخلص من شرورهم .

٣- هلاك فرعون وتولي حاكم آخر ليس بظالم .

٤- هلاك فرعون واستخلاف بني إسرائيل أنفسهم . وهنا الغاية التي لم يكونوا ليتصوروها البتة .. أهُمُ المستضعَفون ؟ ! .. المذلون ؟ ! .. المُهانون ؟ ! ذكورهم مُذبَّحة .. ونساؤهم مُذلَّة .. أتأتي الساعة التي فيها يتملكون .. ويُستخلفون ويكون منهم أئمة ، وقادة ، وحُكّام إنها غاية'' بعيدة'' ، وحلْم لم يُتَصوَّر .. لكنها سنة الله في خلقه ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ (١) . إنه ناموس الله في خلقه ، لا يتخلَّف ، ولا يتبدَّل ، إن الظالم منتكس ، والتمكين للمؤمنين ﴿ ونريدُ أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ (٢)

---

(١) الأعراف / ١٢٨ .

(٢) القصص / ٥ ، ٦

ومن بديع تراكيبه كذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ (١) .

هذا رجاء الذي اشترى يوسف (٢) ـ عليه السلام ـ بعد أن أمر زوجته أن تكرم نزله وتُحسن مثواه ، حتى تطيب نفسه بذلك ، فيرعى هذا الحق عندما يكبر وقد رعاه لما همَّت به امرأة العزيز قال : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ (٣) .

وفي قوله : ﴿ عَسَى أَن يَنفَعَنَا ﴾ أي (لعله إذا تدرب وراض الأمور ، وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله فينفعنا فيه بكفايته وأمانته ، ونقيمه مقام الولد وكان قطفير عقيمًا لا يولد له وقد تفرَّس فيه الرشد فقال ذلك) (٤) وصدقت فراسته ، وهذا الذي رجاه وقع ، وأعظم منه إذ صار نبيًا صالحًا نافعًا ليس لهما فقط ، بل للأمةِ كاملة ، فوقى الله به البلاد شر الفقر والقحط والغلاء ، وقَرَّت به عين الملك وأبيه وأخوته وأصبح مكينًا متينًا أمينًا .

والَّلافت أن " عسى " الرجائية ـ هنا ـ كانت للطمع والتوقُّع وليس ثمة حرج'' في هذا فأحْوِجْ بالإنسان أن يتوسّع في رجائه ! ويبالغ في طلبه ما دام المعطي جوادًا ، لا تنفد خزائنه ، مَلأي لا تغيض أبدًا وفي الحديث " نسألك الفردوس الأعلى " .

وقريب'' من هذا قوله تعالى : ﴿ وقالت امرأتُ فرعونَ قُرَّت عينٍ لي ولك لا تَقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا وهم لا يَشْعُرون ﴾ (٥) .

---

(١) يوسف / ٢١

(٢) قيل هو قطفير أو إطفير وقيل هو الملك : الريان بن الوليد بن بروان وقال الأول ابن عباس وهو الراجح انظر البحر المحيط ٥ / ٢٩٢ ، والتسهيل ٢ / ١١٦ والكشاف ٢ / ٢٤٧ .

(٣) يوسف / ٢٣

(٤) الكشاف ٢ / ٣٤٨ ، وقيل أفرس الناس ثلاثة العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا ، والمرأة التي أتت موسى وقالت لأبيها يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما وروي أنه سأله عن نفسه فأخبره بنسبه فعرفه . انظر الكشاف ٢ / ٢٤٨ .

(٥) القصص / ٩

إنـــه الرجاء والطمع في فضله ، وكان رائد موسى ــ عليه السلام ــ في ذلك ، الحب الذي ألقاه عليه ربه منذ صغره ﴿ وألقيتُ عليك محبةً مني ولتصنع على عيني ﴾ (١) .

فقـــد تعلقت به آسية بنت مُزاحم زوج فرعون ورجت فيه الخير ، أما فـــرعون فقد كان مختلفـــًا عنها تمامـــًا ، إذ لما قـــالت : ﴿ قرتُ عين لي ولك ﴾ قال فرعون : (لكِ لا لي وروي في حديث لو قال هو قرة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها وهذا على سبيل الفرض والتقدير أي لو كان غـــير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها ولأسلم كما أسلمت) (٢) رجت فيه بذكائها مخايل اليُمن ، ودلائل النفع لأهله ، وذلك لما عاينت من النور ، وارتضاع الإبهام ، وبرء البرصاء ، ولعلها توسَّمت في سِماه النجابة المؤذنة بكونه نفـــاعًا (٣) .

وفي الموازنة بين الموقفين السابقين في الرجاء نكتة'' لطيفة'' : الأول في " يوسف " ﴿ أكرمي مثواه **عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا** ﴾ (٤) والسياق على لسان من اشتراه " قطفير " والآخر في " موسى " ﴿ لا تقتلوه **عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا** ﴾ (٥) . والسياق على لسان آسية امرأة فرعون ، فكلا الطفلين صار نبيًا ، الأول نبيٌ أوتي نصف الجمال ، وأُكرم بما لم يُكرم به نبي قبله ؛ إذ هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بـــن إسحق بن إبراهيم والآخر : عبده ومصطفاه وكليمه ومُجتباه ، فهما من جِلّة الأنبياء ، بَيْد أننا نرصد ــ هنا ــ التأثير في وقوع قوة الرجاء ، وبلوغه منـــتهاه للراجيـــن الطامعيـــن المُؤمّلين ؛ أما " قطفير " فقد كان يوسف عليه السلام ــ خيرًا عليه وبركةً ويُمنًا في الدنيا وفي بعض الروايات أنه أسلم ، ليشمل الرجاء سعادته في الدنيا والآخرة (٦) .

---

(١) طه /٣٩

(٢) الكشاف ٣ / ١٥٨ .

(٣) انظر الكشاف ٣ / ١٥٨ .

(٤) يوسف /٢١ .

(٥) القصص/ ٩ .

(٦) انظر في قصة إسلامه وكفره البحر المحيط ٥ / ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

وأمـــا " آسية " فقد كانت سعادتها به أكمل وأشد ، إذ إضافة إلى كون موســـى ـــ عليه السلام ـــ مباركـــًا صالحًا نفـــاعًا لأمته بأسرها ، اختُصت هي بنفع عالٍ ، ومنزلةٍ ساميةٍ وهي التي كانت في الحضيض بكفرها ، فلما آمنـــت ارتقـــت بإيمانها لأعلى عليين وأضاءت بصيرتها ورزقها الله الحكمة والرشد ، فاختارت الجـــار قبل الـــدار ، كما قال الله تعالى على لسانها :

﴿ رَبِّ ابن لي عِندك بيتًا في الجَنَّة وَنَجِّني من فرعونَ وَعَملِهِ وَنَجِّني من القَوْمِ الظَّالمين ﴾ (١)

فأي رجاءٍ بعد هذا ، وأي مبالغة في المنن والعطايا أعظم من هذا ؟ ! فسبحان مَنْ بيده المقادير ومن يعطي العطـــاء بلا حســـاب ، فقد أعطـــــى " آسية " بـــ " عسى " وحُرم " فرعون " بـــ " لكِ لا لي " (٢) .

ملاحظات على دراسة أسلوبَيْ التمني والرجاء (٣) .

١- تناولت الدراسة أربعة نماذج من نماذج القرآن الكريم في التمني وخمسة نماذج في الرجاء .

٢- ســـياقات التمني صدرت من " فرعون " ، وضعاف الإيمان في تمنـــي مثل حظ قارون ، ومن الكافرين . وسياقات الرجاء في " لعل " خطاب لرسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ، وفي " عسى " رجاء من الأخ المؤمن ورجاء من " قطفير " ليوسف ، ومن " آسية " لموسى .

٣- ألفـــاظ التمني أربعة واحدة أصلية هي " ليت " ، وثلاثـــة نائبة هـــي : هل ، ولو ، ولعل ، وهناك أدوات إضافية هي : هلا ، وإلا ، ولولا ، و لوما . وأدوات الترجي : " لعل " ، و " عسى " .

٤- وخلاصـــةُ الفروق بين التمني والترجِّي : أن التمني يكون فيما لا يُتوقع حصوله ، وأما الترجي فيكون في القريب والمتوقع طمعًا أو إشفاقـــًا .

---

(١) التحريم / ١١ .

(٢) عـــند قولـــه تعالى على لسانها ـــ كما مر آنفـــًا ـــ : " قرتُ عينٍ لي ولك " فكان لها كما قالت وقال هـــو : " لكِ لا لي " فكان له ما قال وحُرم الهداية والرشد فكان من الغاوين .

(٣) مزجتُ بين هذين الأسلوبين لقلة نماذجهما وتشابُهما .

٥- حظي الرجاء بنصيب نادر في الدراسة البلاغية ؛ إذ لم يحتفِ بـه البلاغيون احتفاؤهم بما مضى من أساليب [١] ومع ذلك فقد حوى هذا الأسلوب كثيرًا من اللفتات الجمالية البديعة .

٦- من التراكيب البديعة في الرجاء : الموازنة اللطيفة بين قوله تعالى : ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا ﴾ في " يوسف " و " القصص " [٢] .

و- توظيف العرض والتحضيض للمبالغة :

لهذا الأسلوب أداة'' واحدة'' أصلية وردت في القرآن الكريم هي : " ألا " [٣] ، وتكونُ أداةً للعرض إذا كان الطلب برفق ، وهي مختصة بالمضارع كقوله تعالى : ﴿ ألاَ تُحِبُّون أن يغفرَ اللهُ لكم ﴾ [٤]

وتكون أداةً للتحضيض إذا كان الطلب بشدة ، وهي مختصة — أيضًا — بالمضارع كقوله تعالى : ﴿ ألا تقاتِلون قومًا نكثوا أيمانهم ﴾ [٥]

---

(١) لم أحظ في دراسته إلا على دراستين : الأولى قديمة بسطها السيوطي في الإتقان وبسط لها شاهدًا واحدًا هو قوله تعالى : " لعل الساعة قريب " الشورى ١٧ وأخرى حديثة للدكتور عبد القادر حسين في كتابه " فن البلاغة " وقد بسط فيها القول ونوّع لها الأمثلة . انظر " فن البلاغة " / ١٤٦ – ١٥١ .

(٢) انظر التعليق على الآيتين في أسلوب الرجاء .

(٣) ثمة أداتان أصليتان للعرض والتحضيض هما : (" ألاّ " المشدَّدة) ، و " هَلاّ " ، بَيْد أنهما لم يردا في القرآن الكريم سوى قراءة شاذة للأخيرة قرأ بها 'أبي وعبد الله في قوله تعالى : " فلولا كانت قرية'' آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس " يونس ٩٨ قرأ : " فهلاّ كانت قرية " انظر البحر المحيط ٥ / ١٩٢ .

(٤) النور/ ٢٢ .

(٥) التوبة /١٣

وأحـــيانًا يحدث بينهما امتزاج'' في الدلالة كما في قوله تعالى : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائتِ القوم الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون ﴾ (١)

ويحـــدثُ أحـــيانًا تشابه بينهما وبين همزة الإنكار المقترنة بـــ " لا " النافية كما في قوله تعالى :

﴿ فَـــرَاغَ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ﴾ (٢) وتمت دراسة هذا النموذج فـــي (أسلوب الاستفهام) وتلكم الأقسام الأربعة المندرجة تحت المبحث (٣) وهي مبينة في الشكل الآتي :

أداة العرض والتحضيض

(ألا)

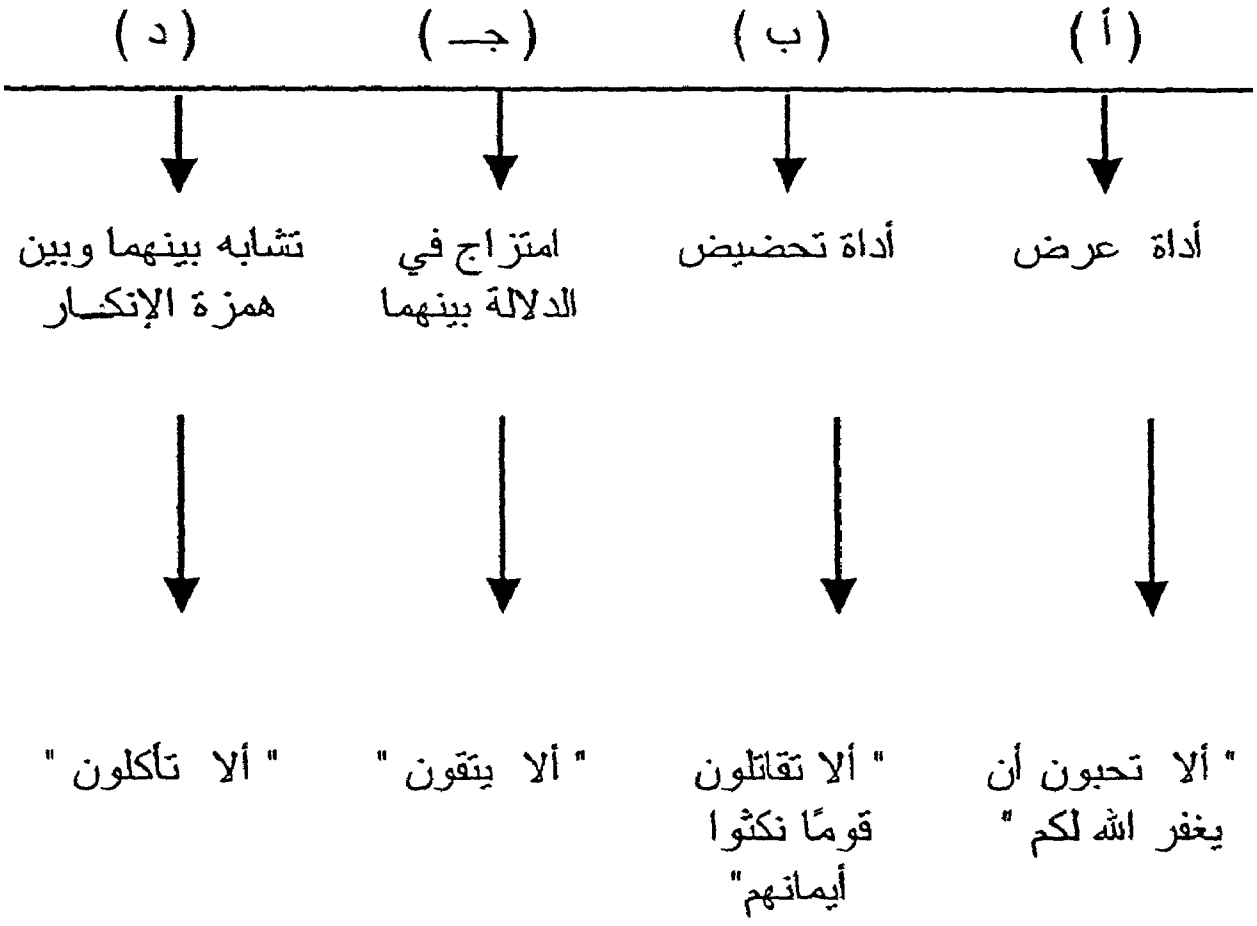

(١) الشعراء /١٠ ، ١١ .

(٢) الصافات / ٩١

(٣) انظر دراسات لأسلوب القرآن ١ / ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

وثمـــة أدوات أخرى ملحقة ترد ــ أحيانًا ــ بمعنى التحضيض ، وليست له نصًا هي " لولا " (١) ، و " لوما " (٢) ، و " أفلا " (٣) .

أولاً : من تراكيب العرض قوله تعالى:﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغفِرَ اللَّهُ لكم﴾ (٤)

أجْمِـلْ بـــه من عَرْض ! وأرْوِعْ به من أسلوب ! .. إنه خطابُ العليّ العظـيم لعـبده ومـولاه أبـي بكـر الصديق ..عَرْض'' لطيف'' من رَبٍّ غفـــور ، ودعـوة كريمة من رَبٍّ كريم للعفو والغفران لمن أساء إليه ، ومسَّـه السوء ، ورَمَى ابنته الصديقة عائشة بالإفك وسنرى كيف طرح أبو بكر هذه الإساءة ومرارة الاتهام والطعن في الشرف لما مسَّ وجدانه وقع هذا العـرض البليغ وذوّق هذا الحثّ الرقيق ، فإذا بنفسه الشفّافة الشفيقة وروحه العلـية الأبـيَّة ومشاعره الفيَّاضة الزكية تسارع لتلبية النداء وامتثال عَرْض الحنَّانِ المنَّان ؛ فقد روى أن أبا بكر لما سمع الآية قال : بلى أحب أن يغفر الله لي ، وأعاد النفقة إلى مِسطح وكفَّر عن يمينه وقال : والله لا أنزعها منه أبدًا .

وفـــي الســياق لفتات جمالية بديعة منها : وصف أبي بكر بـــ " أولي الفضل والسعة " وفيه دليل على فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنـــــه

---

(١) إذا وقـع بعـد " لـولا " الماضي كان معناها التوبيخ واللوم على ترك الفعل وإذا وقع بعدها المضارع فمعناها الحض على الفعل والطلب له فهي بمعنى الأمر إلا أنها تستعمل كثيرًا في لوم المخاطب على أنه ترك في الماضي شـيئـًا يمكـن تداركـه فـي المستقبل ، وقلما تستعمل إلا في موضع التوبيخ واللوم على ما كان يجب أن يفعله المخاطب ، فإذا خلا الكلام من التوبيخ كانت " لولا " للعرض انظر دراسات لأسلوب القرآن ٢ /٦٩٤.

(٢) جـاءت (لوما) التحضيضية في آية واحدة : " وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين " الحجر/ ٦ ، ٧ .

قـال الزمخشري : لو رُكِّبت مع لا ، وما أي لولا ، ولوما فهي لمعنيين معنى امتناع الشيء لوجود غيره ومعنى التحضـيض ، وأمـا هل فلم تركب إلا مع لا وحدها للتحضيض والمعنى ــ هنا ــ هلاَّ تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك . انظر الكشاف ٢ / ٣١٠ .

(٣) ذكر أبو حيّان أن (أفلا) مركبة من همزة الاستفهام التي للإنكار ، وفاء العطف ، و " لا " النافية . وتعطي من دلالاتها ــ أحيانـًا ــ معنى التحضيض ، فقال في تفسير قوله تعالى : " أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه " المائدة /٧٤ " وقال ابن عطية : رفق جل وعلا بهم بتحضيضه إياهم على التوبـة وطلب المغفرة " فرد هذا القول وقال " ومـا ذكروه من الحث والتحضيض على التوبة من حيث المعنى ، لا من حيث مدلول اللفظ ؛ لأن مدلول " أفلا " غير مدلول " ألا " التي للحضّ والحثّ " انظـــر البحـر المحيط ١ /٢٢٥ .

(٤) تمـام الآيـة : " ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ولـيعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور'' رحيم'' " النور/ ٢٢ ، ونزلت هذه الآية بسبب أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مِسطح لما تكلمَّ في حديث الإفك وكان ينفق عليه لمسكنته ، ولأنـه قريبه ، وكان ابن بنت خالته ، فلما نزلت الآية رجع إلى مِسطح النفقة والإحسان ، وكفَّر عن يمينه . انظر التسهيل ٣ / ٦٣ .

وأرضـــاه ، وخطابه بهذا الخطاب الرقيق " ألا تحبون ..... " فيه من الرفق والقرب والشفقة ما فيه ! ثم خطابه بصيغة الجمع " تحبون " تعظيمًا وتكرمةً لـــه ، وأخيرًا تلك المبالغة في العفو والصفح عمن بالغ في الإساءة إليه ، إذ على الرغم من كونه مسيئـًا فهو قريب ، وهو في الوقت ذاته مقترف'' لإثم القـذف ومـــع ذلـــك جاء الحثُّ على العفوِّ والصفح ومن هنا قال صاحـــب التسهيل : (قال بعضهم هذه أرجى آية في القرآن ؛ لأن الله أوصى بالإحسان إلـــى القـــاذف) (١) . ومن هنا **فالمبالغة** في هذا الاستعلاء الإيماني وبلوغ الأســـلوب القرآني بالناس إلى أقصى درجات العفو والصفح رجاء العفو من الله العلي القدير .

ومـــن ســـياقات الحض قوله تعالى : ﴿ ألا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٢) .

قـــال الزمخشري : (دخلت الهمزة على " لا تقاتلون " تقريرًا بانتفاء المقاتلـــة ومعـــناه الحـــض عليها على سبيل **المبالغة** (نكثوا أيمانهم) التي حلفوهـــا في المعاهدة (وهموًا بإخراج الرسول) من مكة حين تشاوروا في أمـــره بـــدار الـــندوة حتى أذن الله تعالى له في الهجرة فخرج بنفسه (وهم بدءوكم أول مرة) أي وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة ؛ لأن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ جاءهم أولاً بالكتاب المنير ، وتحدَّاهم به ، فعدلوا عـــن المعارضـــة لعجزهم عنها إلى القتال فهم البادئون بالقتـــال ، والبادئ أظـــلم (٣) فمـــا يمـــنعكم من أن تقاتلوهم بمثله وأن تصدموهم بالشر كما صـــدموكم ، وبَّخهـــم بترك مقاتلتهم ، وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الحـــض علـــيها ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرســـول والـــبدء بالقتال من غير موجب حقيق بأن لا تترك مصادمته وأن يوبخ من فرَّط فيها) (٤) .

---

(١) التسهيل ٣ / ٦٣ .

(٢) تمـــام الآية : " ألا تقاتلون قومًا نكثوا أيمانهم وهمُّوا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أوّل مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين " التوبة / ١٣ .

(٣) هـــذه العـــبارة ليســـت صحيحة ؛ لأن البادئ ليس بأظلم ، بل ظالم 'كلُّ الظلم ، والذي يرد الظلم عن نفســـه لا يلتبس به أي ظلم بدليل قوله تعالى : " وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به " النحل /١٢٦ ، وقوله تعالـــى : " ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم " الشورى /٤١ ، ٤٢ .

(٤) الكشاف ٢ / ١٤٢ ، وانظر البحر المحيط ٥ / ١٨ .

وجملة القول : إن هذا السياق حوى عناصر لغوية متعددة تحضّ على القتال هي :

١- ألا : حرف عَرْض ، ومعناه الحضُّ على القتال على سبيل **المبالغة** كما أشار الزمخشري آنفًا .

٢- نقض العهد في قوله : ﴿ نكثوا أيمانهم ﴾ .

٣- عزموا على تهجير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة في قوله : ﴿ وهموا بإخراج الرسول ﴾ .

٤- هم البادئون بالقتال والاعتداء حيث قاتلوا حلفاءكم خزاعة في قوله : ﴿ وهم بدءوكم أول مرة ﴾ .

٥- في قوله ﴿ أتخشونهم ﴾ تقرير للخشية وتوبيخ عليها كما لفت إلى ذلك الزمخشري (١) .

٦- ﴿ فالله أحق أن تخشوه ﴾ تهييج للمؤمنين للتبرؤ من خوف البشر وخلوص الخوف منه سبحانه .

٧- ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فيه إشارة إلى أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمنُ الإ ربَّه ، ولا يُبالي بمن سواه كقوله تعالى " ولا يخشون أحدًا إلا الله " (٢) .

وكلها ـ كما ترى ـ عوامل ساعدت على تكثيف الدلالة حول حتمية الحضِّ الشديد على القتال ، وقدَّم السياق كافة المبررات الداعية للقتال مع تنويع السياقات الداخلية بين خبر وإنشاء ، ومخاطبة للعقل والوجدان . لا سيما بعد ما بدا من الكافرين كل ما يدعو إلى قتالهم ، وتبلورت **المبالغة** في الوصول إلى أقصى درجات التهييج والحض على القتال عبر هذه الوسائل كلها مجتمعة ، حتى أن الأسلوب القرآني لم يدع بابًا للتنصل من قتال المشركين . من أجل ذلك جاء الأمر الصريح بالقتال عقب هذا السياق ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ﴾ (٣) .

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ١٤٢ .

(٢) الأحزاب / ٣٩ .

(٣) التوبة /١٤ ، ١٥ .

ومن التراكيب الفنية لـ (لولا) التحضيضية التي وُظّفت للمبالغة قوله تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا وقالوا هذا إفك'' مبين ﴾ (١) .

هذا تأديب'' من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في قالة السوء عليها ، ولولا ـ هنا ـ للتحريض على ظنّ الخير ، والإرباء بالنفس عن الارتكاس في حمأة الفاحشة وإفشاء قالة السوء ، والمعنى أنه كان ينبغي للمؤمنين والمؤمنات أن يقيسوا ذلك الأمر على أنفسهم فإن كان ذلك يبعد في حقهم فهو في حقّ عائشة أبعد لفضلها (٢) ، فإن قيل : لِمَ قال سمعتموه بلفظ الخطاب ، ثم عدل إلى لفظ الغيبة في قوله : ﴿ ظنَّ المؤمنون ﴾ ، ولم يقل ظننتم ؟ فالجواب أن ذلك التفات قصد به **المبالغة** والتصريح بالإيمان الذي يوجب أن لا يصدق المؤمن على المؤمن شرًا (٣) .

والملحظ في السياق ذاك الأدب الرفيع بتلك الحمايةِ الواقيةِ للمجتمع من الانحلال والانحراف وراء النوازغ والأهواء والترديد لقالات المُغرِّضين وكان منتظرًا في مجتمع تربَّى على الإيمان أن يستجيب لنداءين خطرين :

الأول : نداء الوجدان ﴿ لولا إذ سمعتموه ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا ﴾ وذلك بعرض الأمر على القلب ، واستفتاء الضمير ، والركون إلى الشعور الإيماني بسبق الخير إلى النفس ، والإعراض عن خواطر السوء عند سماع ما يسوء ويَشين أي مؤمن بله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم .

النداء الثاني : مطالبة ناقل السوء بتقديم الدليل على صحة القول.

---

(١) تمام السياق : " لولا إذ سمعتموه ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا وقالوا هذا إفك'' مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون " النور / ١٢ ، ١٣ .

(٢) روي أن هذا النظر وقع لأبي أيوب الأنصاريّ ، فقال لزوجته : أكنت أنت تفعلين ذلك ؟ قالت : لا والله ، قال فعائشة أفضلُ منكِ ، قالت : نعم . انظر التسهيل ٣ / ٦١ .

(٣) انظر الكشاف ٣ / ٦٥ ، والتسهيل ٣ / ٦ ، والبحر المحيط ٦ / ٤٠٢ .

من أجل ذلك جاءت الآية الثانية من هذا السياق تؤكد هذا المبدأ ﴿ لولا جـاءوا علـيه بأربعــة شــهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هــم الكــاذبون ﴾ (١) . لكــن ــ للأسف ــ غفل المؤمنون عن هذين النداءين ، فخاضوا مع الخائضين فجاء العتابُ ، واللوم ، بل التحذير في قوله تعــالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والأخرة لمسَّكم في ما أفضتم فيه عذاب'' عظيم'' ﴾ (٢)

ويتكــثف دور المبالغة في قوله : ﴿ بأنفسِهم ﴾ أي كان من المفروض أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات هذا الأمر على أنفسهم ، فإذا كان ذلك يبعد عليهم ، قضوا بأنه في حق من هو خير'' منهم أبعد (٣) .

أو هــو من قبيل ما يقع على المؤمنين يقع على كل مؤمن ، فما يشين المســلمين يشــين كــل مسلم على سبيل المشاركة ، والمؤازرة ، والتواد ، والــتعاطف ، وكأن المسلم الذي يصدر منه عيب'' لمسلم إنما يعيبُ نفســه هــو ، وهــذا الأدب شائــع فِي القــرآن نحو قوله تعــالى : ﴿ وَلَا تَلمِزُوا أنفسَكم ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ فَسَلِّموا على أنفسِكم ﴾ (٥) ، وقوله ــ سبحانه ــ ﴿ ولا تَقــتُلوا أنفُسَــكم ﴾ (٦) فسمَّى العيب للغير عيبًا للنفس ، وسمَّى السَّلام علــى الغــير ســلامًا على النفس وسمَّى قتل الغير قتلاً لنفسه هو . كذلك الالــتفات في ﴿ ظنَّ المؤمنون ﴾ ليبالغ في التوبيخ كما أشار الزمخشري(٧) ، كذلــك يبرز دور المبالغة في تلك الثقة الشديدة بالمؤمنين وبراءة ساحتهم في قوله تعالى : ﴿ قالوا هذا إفك'' مبين ﴾ وهو لم يرَ بعد إن كان هذا إفكــًا أم صــدقــًا ، لكــنه الــرد السريع لكل من سوَّلت له نفسه أن يرمي مؤمنــًا صــادقــًا بسوء فيدفع عنه ــ أولاً ــ بكل قوة .. في لحظتها ثم يتبين بعد ذلــك أيــن هــي الحقيقة ؟ ! . وفي هذا الأسلوب القرآني البديع وصول'' بالمؤمن إلى أقصى درجات التبرئة ، والذود عن أخيه المسلم ، والدفاع عنه كما يدافع عن نفسه .

---

(١) النور/ ١٣ .
(٢) النور / ١٤ .
(٣) انظر البحر المحيط ٦ / ٤٠٢ .
(٤) الحجرات / ١١ .
(٥) النور / ٦١ .
(٦) النساء / ٢٩ .
(٧) انظر الكشاف ٣ / ٦٥ .

ومن سياقات " لولا " كذلك قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ (١)

إنه الغلو في الاستكبار والعتو في طلبهم : أن يكلمهم الله ــ عز وجل ــ كما يكلم الملائكة وكما كلمَّ موسى ــ عليه السلام ــ فقالوا : هـلا يكون أحد هذين : إما التكلم ، وإما إتيان آية ، قالوا : ذلك جحودًا ، والعجيب أنه لم يكن هذا طلب المشركين في زمن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحسب ، بل كان كذلك طلب اليهود وغيرهم من قبلهم فلقد طلب قوم موسى أن يروا الله جهرة ، وغالى المشركون في طلب الخوارق المعجزة أيَّما غلو ، وتعنتوا في ذلك أقصى تعنت ، فطلبوا من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يفجر لهم الأرض ينبوعًا ، وأن تكون له جنة من نخيل وعنب وأن يتملك بيتًا من زخرف وأن يأتي بالله والملائكة قبيلاً وأن يرقى في السماء وينزل عليهم هم كتابًا مقدسًا ! فكان بين المشركين ومن قبلهم من اليهود شبه'' في التصوُّر وشبه'' في الضلال ، وشبه'' في الغلوِّ والإفراط وتجاوز الحد ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ فبئس ما تشابهت فيه من العمى والعناد والتكذيب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّن فمن أظلمُ ممن افترى على الله كذبًا ﴾ (٢)

لولا للتحضيض والإنكار ، إذ يستحيلُ وقوع سلطان بيِّن على ذلك ، فلا يمكن فيه التحضيض الصرف ، فحضوهم على ذلك على سبيل المبالغة في التعجيز ، وفيه دليل'' على أن الدين لا يؤخذ إلا بالحجة ، والدعوى إذا لم يكن عليها دليل'' فاسدة وهي ظلم'' وافتراء'' على الله (٣) .

---

(١) البقرة / ١١٨ .

(٢) الكهف / ١٥ .

(٣) انظر البحر المحيط ٦ / ١٠٣ .

ز- توظيف النداء للمبالغة :

النداء : هو طلب المُتكلم إقبال المخاطب بحرفٍ من أحرف النداء وأداته ثمان : يا والهمزة وأيْ وآيْ وآ وأيا وهيا ووا [١] .

منها ما يُستعمل لنداء القريب : الهمزة ، وأيْ .

ومنها ما يُستعمل لنداء البعيد : باقي الأدوات .

وذكر الخطيب القزويني " النداء " في معرض دراسته لأنواع الإنشاء الطلبي فقال : (ومنها النداء ، وقد تستعمل صيغته في غير معناه ، كالإغراء في قولك لمن أقبل يتظلم : يا مظلوم ، والاختصاص في : أنا أفعل كذا أيها الرجل ، ونحن نفعل كذا أيها القوم ، واغفر اللهم لنا أيتها العصابة . أي : متخصصًا من بين الرجال ، ومتخصِّصين من بين الأقوام والعصائب) [٢] .

ولا غرو أن في حديث الخطيب عن " النداء " إيجازًا شديدًا ، إذ حصر الدلالات المجازية للنداء في نطاق ضيق ، في حين أن أسلوب النداء ثريٌ بدلالاته الفنية المتعددة ، ومن خلال أداته يمكن التعبير عن شتى ألوان المشاعر والأحاسيس ، ومن دلالاته الفنية في اللُّغة : التعظيم ، والتعجب ، والهجاء ، والتحسُّر والتوجُّع ، والاختصاص ، والنُّدبة ، والإغراء ، والزجر والملامة ، والاستغاثة ... الخ .

والقرآن المجيد مع كثرة النداء فيه لم يأتِ فيه نداء'' بغير " يا " ، وهي أكثر حروف النداء استعمالاً ، ولهذا لا يُقدَّر عند الحذف سواها ، ولا يُنادى اسم الله تعالى إلا بها [٣] .

---

(١) انظر المُغني / ١٨ ، وشرح جمل الزجاجي (الشرح الكبير) لابن عصفور ٢ / ٨٠ .

(٢) الإيضاح / ١٧٩ .

(٣) انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣ / ٦١٢ ، وفن البلاغة / ١٥١ .

وأصل النداء بـــ " يا " أن تكون للبعيد حقيقةً أو حكمًا ، وقد ينادى بها القريب لنكت : منها إظهار الحرص في وقوعه على إقبال المدعوّ نحو :

﴿ يا مُوسى أقبلْ ﴾ (١)

ومنها كون الخطاب المتلوّ معتنىً به ، نحو :

﴿ يأيُّها النَّاس اعبُدوا رَبَّكم ﴾ (٢)

ومنها قصد تعظيم شأن المدعوّ ، نحو: ﴿ يارب ﴾ ، وقد قال تعـــالى :
﴿ فإنِّي قريبٌ ﴾ (٣)

ومنها قصد انحطاطه ، كقول موسى :

﴿ وإنِّي لأظنُّك يا فِرْعونُ مَثْبورًا ﴾ (٤)

وكـــثر في القرآن النداء بـــ ﴿ يأيها ﴾ دون غيره ؛ لأن فيه أوجهًا من التأكيد ، وأسبابًا من **المبالغة** (٥) .

---

(١) القصص/ ٣١ .

(٢) البقرة /٢١ .

(٣) البقرة/ ١٨٦ .

(٤) الإسراء/ ١٠٢ .

(٥) الاتقـــان ٣ / ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، والـــلافـــت أن الله تعالى نادى جميع أنبيائه ورسله بأسمائهم ، ونادى نبيـــنا محمـــدًا ـــ صـــلى الله عليه وسلم بوصفه الشريف : " يا أيها النبي " الأحزاب / ١ ، " يا أيها الرسول " المائدة/ ٦٧ ، " يا أيها المزمل " المزمل / ١ ، " يا أيها المدثر " المدثر/ ١ .

ومن بديع تراكيبه قوله تعالى :

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ'' يَاحَسْرَتَىَ على مَا فرَّطتُ في جَنْبِ اللَّهِ وإن كنتُ لمن السَّاخرين ﴾ (١) .

هذا قول بعض النفوس التي أسرفت في العصيان تقول ياحسرتي وندامتي على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقه ، ثم تأتي المبالغة في المعصية بأن سخروا من أهل الطاعة ، واستهزؤا من أهل الاستقامة (قال قتادة : " لم يكفه أن ضيَّع طاعة الله حتى سخر من أهلها ") (٢) .

إن ذلك السياق النَّحسُّري جاء بعد سياق الرجاء ، أرجى آية في كتاب الله ﴿ قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفورُ الرحيمُ ﴾ (٣) .
إنها الرحمة الواسعة التي وسعت كل العاصين" إن الله يغفر الذنوب جميعًا " .
تهييج لطيف'' ، وحثٌّ رقيق على التوبة والأوبة والإنابة لرب الأرض والسماء ، ومكمن المبالغة هنا يتأتى من حسرتهم المفرطة بسبب عصيانهم المركب للأمور الآتية :

١- عدم استجابتهم لنداء الحق بفتح باب التوبة (لا تقنطوا من رحمة الله).

٢- استمرارهم في المعصية وإصرارهم عليها .

٣- ثم زادوا على ذلك بسخريتهم من أهل الحق .

---

(١) الزمر/ ٥٦ .

(٢) الكشاف ٣ / ٣٥٢ ، والبحر المحيط ٧ / ٤١٨ ، روي أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وفسق وأتاه إبليس ، وقال له تمتَّع من الدنيا ثم تُبْ فأطاعه ، وكان له مال'' فأنفقه في الفجور فأتاه ملك الموت في آلدِّ ما كان فقال ياحسرتا على ما فرَّطت في جنب الله ذهب عمري في طاعة الشيطان وأسخطت ربي فندم حين لم ينفعه الندم فأنزل الله خبره في القرآن . انظر الكشاف ٣ / ٣٥٢ .

(٣) الزمر/ ٥٣ .

(٢) الأساليب الإنشائية " غير الطلبية "

أ- توظيف القسم للمبالغة :

القسم : هو استعانة الحالف بقوةٍ أعظم من قوته ، تدفع بالمخاطَب إلى تصديق ما يقوله الحالف ، قبل القسم: كان أمر الحالف إلى نفسه ، إنْ صدق ، وإنْ كذب ، وبعد القسم: صار أمره إلى الحق سبحانه إن صدق غنم ، وإن كذب غرم (١) .

وللقسم أدوات منها : الباء والواو والتاء واللام ، وما يجري من الأفعال مجرى القسم مثل : حلف وتأدَّن وعاهد ، وتمَّت ، وقضينا ، و وعد ، وكتب ، ويعلم ، ويشهد ، وأخذ الميثاق ، وبعض العبارات مثل : " أم لكم أيمان " (٢) .

ومن سياقاته البديعة قوله تعالى : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٣)

أقسم عدوُّ الله فقال لربه : لئن أخرتَ إهلاكي إلى يوم القيامة لأقودنهم إلى المعاصي والإفساد كما تقاد الدابة بحنكها غير ممتنعة على قائدها ، وهو عبارة عن الاستيلاء عليهم ، وتملك تصريفهم كما يريد ، ومبعث المبالغة كائن'' في توظيف القسم لإيراد هذا المعنى البليغ من حيث قدرته على الإغواء ، والتأثير الفعَّال والمباشر في التملك ، والاستيلاء على الغالبية العظمى من البشر حيث يسوقهم كما يشاء ، وسرُّ التعبير في لفظة " لأحتنكنَّ " بما حوته من قسم ، وماتعلَّق به من تصوير ، تصوير السيطرة باللجام في حنك الفرس ، إذ لا أحكم منه للفرس ، ولا أملك منه لانقياده وتسييره (٤) ، وقال " الشريف الرضيّ " { وقال بعضهم معنى لأحتنكن ذريته أي لألقين في أحناكهم حلاوة المعاصي حتى يستلذُّوها ، ويرغبوا فيها ويطلبوها والقول الأول (أي الاحتناك بمعنى الاستيلاء وتصرييف الشأن) أحبُّ إليّ } (٥) ولعل القول الثاني هذا الذي انماز به " الشريف الرضي " عن سائر المفسرين يُعدُّ بمثابة التمهيد للقول الأول ، فهو يمثل

---

(١) انظر بديع التراكيب /١٩٤ .

(٢) انظر دراسات لأسلوب القرآن ١٠ / ٢٤٨ ــ ٢٥٢ .

(٣) تمام الآية : " قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا " الإسراء /٦٢ .

(٤) انظر القرطبي ٥ / ٤٠١٥ ، والبحر المحيط ٦ / ٥٥ ، والتحرير والتنوير مجلد ٧ ــ١٥/١٥١.

(٥) تلخيص البيان /١٥٢.

إلقاء " الطُعْم " لاصطياد الفريسة والتنوع الحثيث في إغواء بني آدم كما قال تعالى : ﴿ زُيِّن للناس حُبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المُقنطرة من الذهب والفضة والخيل المُسَوَّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حُسن المئاب ﴾ (١) تلك هي الطُعوم التي يستخدمها الشيطان في الاصطياد والحبائل التي يستعملها في الاستيلاء والتمكين من الإنسان (٢) فلا تعارض بين القولين ، بل هما متكاملان يبدأ " بالطُعم "وينتهي بالاستحواذ .

وبعد هذا التزيين وإثبات القدرة على السيطرة يُقرُّ أن ثُلَّةً من الناس لا يستطيع إغواءهم " إلا قليلاً " وهم المُخْلَصُون الذين اعتصموا بحبل الله فنَجَوْا .

ومنه المبالغة في التسامح وترك الدفع ورد العدوان كما في قوله تعالى : ﴿ لئن بَسَطتَ إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يَدي إليك لأقتلك إنِّي أخافُ اللَّه ربَّ العالمين ﴾ (٣)

إنه " هابيل " يُذكِّر أخاه لئن مددت إليَّ يدك ظلمًا لأجل قتلي ما كنت لأقابلك بالمثل قال ابن عباس : ما أنا بمنتصرٍ لنفسي (٤) هذا على الرغم من أن " هابيل " كان أشدَّ قوةً من قابيل ، ولكنه تحرَّج من القتل خوفًا من الله عز وجل ، والشيء نفسه حدث لعثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ؛ إذ بشرَّ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالجنة على بلوى تصيبه ، ورآه في اليوم الذي قتل فيه في النوم ، وهو يقول : إنك تفطر الليلة عندنا ، فترك الدفع عن نفسه حتى قتل ، وقال له رسول الله ــ صلى الله عليه سلم ــ " الق على وجهك وكن عبد الله المقتول ، ولا تكن عبد الله القاتل (٥) ولا يخفى أن هذا كله في وقت الفتن ، أما في أصل

---

(١) آل عمران/ ١٤ .

(٢) بدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد وفي صحيح البخاري : " ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء " ثم ذكر ما يتولد منهن فقال " والبنين " وإنما ثنىَّ بالبنين لأنهم ثمرات القلوب ، وقدموا على الأموال لأن حب الإنسان لولده أكثر من حبه لماله ثم ذكر " الخيل المسومة " والأنعام والحرثُ " وتلك هي وسائله المتدرجة في الإغواء .

(٣) المائدة/ ٢٨ .

(٤) انظر البحر المحيط ٣ / ٤٧٧ .

(٥) نفسه ٣ / ٤٧٧ .

الشـــر ع فـــيجوز الدفـــاع عن النفس بل يجب [١] واستمرارًا لهذه الشفافية والمــبالغة فـــي صـــرف الشر ودوافعه ، ومحاولة استجماع الخير في نفس أخـــيــــه قال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ [٢].

هذه المساحة الكبيرة من المسامحة ، والتنازل البَيِّن في المغالبة ما كان ليثني الأخ القـــاتل عمـــا تـــراوده نفسه من القتل ، هذا النمـــــوذج المتسامح في شخص " هابيل " ربما كان يتصور من أخيه أن يقابل تسامحه بتسامح ورأفته بـــرأفة وليـــنه بلين ، بَيْدَ أن دوافع الشر كانت غالبة ﴿ فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ [٣].

وقـــد وُظِّف القسم المنوط باللام المؤذنة بالقسم في " لئن " [٤] ليؤكد قـــوة عـــزم الأخ المتســـامح في النفور من القتل وبذله أقصى ما في طاقته لصرف أخيه عن الاعتداء والسفك .

ومنه المبالغة في نفي الاهتداء كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ [٥].

أي و الله لئـــن جئـــت يـــا محمـــد ــ صلى الله عليه وسلم ــ اليهود والنصـــارى بكـــل معجزة على صدقك في أمر القبلة ، ولو سلكت بهم شتَّى الطـــرق ، واتبعـــت شتى الوسائل ما تبعوا قبلتك ، مبالغةً في نفي الاتباع والاهـــتداء ، لأن المانع لهم من الاهتداء ليس هو فقدان الدليل ، فهم يعرفون صدق النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم يفتقدون الإخلاص والتجرد من الهوى ، والقسم مُساق لتوكيد هذه الحقيقة وبيان عدم نفـــع أي أســـلوب معهـــم ، وعدم جدوى أي محـــــاولة لاهتدائهم إلى قبلة الإسلام ونهجـــــه ، فسبحان الذي خلق الخلق وهو أعـــــلم بهم ! وما أشـــدَّ

---

(١) انظر التسهيل ١ / ١٧٤ .

(٢) المائدة / ٢٩ .

(٣) المائدة/ ٣٠ .

(٤) البقرة/ ١٤٥ .

(٥) مذهـــب البصـــريين إذا اجتمع قسم وشرط حذف جواب المتأخر لدلالة جواب الأول عليه كمـــا في الآية انظر البحر المحيط ١ / ٦٠٤ .

غرور من ظنَّ بهم الخير وزعم أنهم دُعاة إلفٍ وسلامٍ .

ومنه المبالغة في التأسُّف في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تفتأُ تذكرُ يوسفَ حتى تكون حَرَضًا أو تكون من الهَالكين ﴾ (١) . قال الأخوة لأبيهم : والله لا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه حتى تمرض مرضًا مشرفًا على الهلاك أو تهلك أسىً وحسرة .

ودليل المبالغة ــ أيضًا ــ الآية السابقة على هذه الآية وهي قوله عز من قائل : ﴿ وتولَّى عنهم وقال يأسفىَ على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهوكظيم ﴾ (٢) قال الزمخشري : { " يا اسفى " أضاف الأسف ، **وهو أشد الحُزْن والحسرة** إلى نفسه والألف بدل من ياء الإضافة والتجانس بين لفظتى الأسف ويوسف مما يقع مطبوعًا غير مُتعمل فيملح ويبدع ... (فإن قلت) كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث ، والرُّزء الأحدث أشد على النفس وأظهر أثرًا (قلت) : هو دليل على تمادي أسفه على " يوسف " وأنه لم يقع فائت عنده موقعه ... (وابيضَّت عيناه) إذا كثر الاستعبار محقت العَبْرة سواد العين ، وقلبته إلى بياض كدر ، قيل قد عمى بصره وقيل كان يدرك إدراكًا ضعيفًا ... وعن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه سأل جبريل ــ عليه السلام ــ ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف قال : وَجْدُ سبعين ثكلى ، قال : فما كان له من الأجر قال أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة قط ... " فهو كظيم " فهو مملوء من الغيظ على أولاده ... من كظم السقاء إذا شده على ملئه } (٣) .

---

(١) تمام السياق : " وتولى عنهم وقال يأسفىَ على يوسف وابيضَّت عيناه من الحُزن فهو كظيم * قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حَرَضًا أو تكون من الهالكين " يوسف/٨٤ ، ٨٥ .

(٢) يوسف/ ٨٤ .

(٣) الكشاف ٢ / ٢٧١ ، ثم أضاف مبينًا شرعية الأسف والمحمود منه والمذموم " فإن قلت " كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ (قلت) الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن ولقد بكى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على ولده " إبراهيم " وقال : القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يُسخط الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون ، وإنما الجذع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح ، والنياحة ولطم الصدور ، والوجوه ، وتمزيق الثياب . انظر الكشاف ٢ / ٢٧١ .

ومـــن هنا أسهمت هذه الألفاظ " يا أسفى ــ ابيضَّت عيناه ــ كظيم ــ تـــالله ــ تفتأ ــ حَرَضًا ــ من الهالكين " في رسم صورة المبالغة الدالة على شدة التفجُّع ، وغاية التأسُّف التي بلغها نبي الله يعقوب ــ عليه السلام .

أمـــا عـــن جمـــال السياق من زاوية أخرى فقد قال السيوطي : { أتى بأغـــرب ألفـــاظ القســـم وهي : التاء ، فإنها أقل استعمالاً ، وأبعد من أفهام العامـــة بالنســـبة إلـــى الباء والواو ، وبأغرب صيغ الأفعال التي ترفـــع الأسماء ، وتنصب الأخبار ؛ فإن " تزال " أقرب إلى الأفهام وأكثر استعمالاً مـــنها ، وبأغرب ألفاظ الهلاك ، وهو الحَرَض ، فاقتضى حسن الوضع في الـــنظم أن تُجـــاوَر كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة ، توخيًـــا لحسن الجـــوار ورغـــبةً في ائتلاف المعاني بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم } (١) .

ومنه المبالغة في تقليل الزمن كما في قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (٢)

إذ هـــم يقسمون " ما لبثوا غير ساعة " في الدنيا (٣) نظرًا لاستقصار تلـــك المـــدة ، وتضاؤلها في حسِّهم ، وهم مخطئون في هذا التصور المَبْني علـــى المغالطة ، أو النسيان أو التخمين (٤) ، بَيْد أن هذه طبيعتهم في قلب الحقـــائق ، وطمـــس البراهيـــن من أجل ذلك قال عـــز من قائل في تتمـــة السياق : ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ أي يصرفون عن الحق والصدق والتقدير الصحيح للأمور ، ويبنون تصورهم على خلاف الحق حتى يردهم أولو العلم إلـــى التقدير القويم مصداقـــًا لقوله تعالى : ﴿ وقال الذين أوتو العلم والإيمان لقد لبثتم في كتـــــاب الله إلى يوم البعث فهـــذا يوم البعث ولكنكـــــم كنتـــم لا تعلمون ﴾ (٥)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٢٦٢ ، وانظر البرهان ٣ / ٣٧٨ ، وقد نقلت النص من " الإتقان " وإن كان مسبوقـــًا لأنه أوفى .

(٢) الروم/ ٥٥ .

(٣) أرادوا لبثهم في الدنيا أو في القبور أو فيهما معـــًا انظر الكشاف ٣ / ٢٠٨ .

(٤) انظر الكشاف ٣ / ٢٠٨ .

(٥) الروم / ٥٦ .

ومن المبالغة في العزم على الفعل كقوله تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ (١)

أي إنا اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع بدعوة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم كما اختبرنا أصحاب البستان (٢) حين حلفوا ليقطعن ثمرها وقت الصباح قبل أن يخرج إليهم المساكين ﴿ ولا يستثنون ﴾ (٣) وكانت هذه الجملة الأخيرة المنفية الغاية في الوصول أبعد المرامي للتخلص من الفقراء والمساكين جملة واحدة ، وحرمانهم من أي ثمرة دَقْعةٍ واحدة ، فكان الجزاء من جنس العمل ؛ إذ حرمهم الله فلم يُبق لهم ثمرة واحدة .

ومنه **المبالغة** في إهانة اليهود وهوانهم في قوله تعالى : ﴿ وإذ تأذَّن ربُّك ليبعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يَسُومهم سُوء العذابِ إن ربَّك لسريعُ العِقاب وإنَّه لغفور'' رحيم'' ﴾ (٤)

---

(١) القلم /١٧ ، ١٨ .

(٢) روي أن إخوة من بني إسرائيل كانت لهم جنة بمقربة من " صنعاء " فحلفوا أن لا يعطوا مسكينًا منها شيئًا وباتوا عازمين على ذلك ، فأرسل الله على جنتهم طائفًا من نار فأحرقتها فلما أصبحوا إلى جنتهم لم يروها فحسبوا أنهم ضلوا الطريق ثم تبينوها فعرفوها وعلموا أن الله عاقبهم فيها بما قالوا فندموا وتابوا إلى الله . انظر التسهيل ٤ / ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٣) (في معناه ثلاثة أقوال أحدها لم يقولوا إن شاء الله حين حلفوا ليصرمنها والآخر لا يستثنون شيئًا من ثمرها إلا أخذوه لأنفسهم والثالث لا يتوقفون في رأيهم ولا ينتهوا عنه أي لا يرجعون عنه) التسهيل ٤ / ١٣٩ والأقوال الثلاثة تعني شدة العزم والحزم في إمضاء الحرد .

(٤) الأعراف /١٦٧ .

قال الزمخشري : { (تأذَّن ربك) عزم ربك وهو تفعل من الإيذان وهو الإعلام لأن العازم على الأمر يحدث نفسه به ، ويؤذنها بفعله ، وأجرى مجرى فعل القسم كعَلِمَ الله وشهد الله ولذلك أجيب بما يجاب به القسم وهو قوله " ليبعثن " والمعنى وإذ حتم ربك وكتب على نفسه ليبعثن على اليهود " إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب " فكانوا يؤدون الجزية إلى المجوس إلى أن بعث الله محمدًا ــ صلى الله عليه وسلم ــ فضربها عليهم فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر ومعنى ليبعثن عليهم : ليسلطن عليهم كقوله " بعثنا عليكم عبادًا لنا أولي بأس شديد " الإسراء ٥ }(١) .

إنه قسم'' من رب البرية باستمرار هوان اليهود ، وديمومة إهانتهم وإذاقتهم ألوان العذاب إلى أقصى ما تعيشه البشرية ، ومكمن **المبالغة** في قسم الله أن يبعث عليهم أبد الدهر إلى " يوم القيامة " من يردهم إلى الذل ويعيدهم إلى المسكنة (٢) .

---

(١) الكشاف ٢ / ١٠١ .

(٢) فقد أهانهم الفرعون حتى أذلهم وسلط الله عليهم بُخْتَنُصَّر فقتلهم وسباهم ، وسلط عليهم " الرومان " فأذلوهم وضربوا عليهم الجزية وسلط عليهم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فطهر الأرض من رجسهم ، وأجلاهم عن الجزيرة العربية ، وسلط عليهم ــ أخيرًا ــ هتلر ــ فاستباح حماهم وكاد أن يبيدهم ، ويفنيهم بالقتل والتشريد في الأرض ، ولا يزال وعيد الله بتسليط العذاب عليهم ساريًا إلى أن يقتلهم المسلمون في المعركة الفاصلة ــ إن شاء الله ــ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . ولقد يبدو ــ أحيانًا ــ أن اللعنة قد توقفت ، وأن يهود قد عزت واستطالت ! وإن هي إلا فترة عارضة من فترات التاريخ .. ولا يدري إلا الله من ذا الذي سيسلط عليهم في الجولة القادمة ، وما بعدها إلى يوم القيامة . سيد قطب في ظلال القرآن ٣/١٣٦٤ ــ ١٣٨٦ . بيد أن الأمل معقود أن يبث الله الروح في هذه الأمة الإسلامية ، وأن يخرجها من سباتها وأن يفيقها من غيبوبتها لتحقق وعيد الله لهم ، وتردهم إلى الذل الذي كتبه الله عليهم .

ومنه المبالغة في نفي البعث في قوله تعالى :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

حلف المشركون جاهدين في أيمانهم مبالغين في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت ولعل التعبير بـ " جهد أيمانهم " إضافة إلى القسم أضفى هذا البُعد المتناهي في نفي البعث في تصورهم ، ورأوه أمرًا عسيرًا إن لم يكن مستحيلاً بعد البِلى وتفرق الأشلاء والذرات .

---

(١) النحل / ٣٨ ، قال ابن منظور : { هو " الجَهْد " بالفتح : المشقة وقيل : المبالغة والغاية وبالضم الوُسع والطاقة ، وقيل : هما لغتان في الوسع والطاقة ، فأما في المشقة والغاية فالفتح لا غير } لسان العرب مادة (جـ ، هـ ، د) .

ب- توظيف التعجب للمبالغة :

التعجب : معنى يحصل عند مشاهدة ما يُجهل سببه ويقل في العادة وجود مثله وذلك المعنى كالدهش والحيرة [١] ولا يوصف الله ـ تعالى ـ بالتعجب (لأنه استعظام يصحبه الجهل ، وهو تعالى مُنزَّه'' عن ذلك) [٢] .

قال ابن منظور : " العُجْب والعَجَب : إنكار ما يَرِد عليك لقلة اعتياده " [٣] وقال الراغب الأصفهاني : { العَجَبُ والتعجُّب : حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء ، ولهذا قال بعض الحكماء العجبُ مالا يُعرف سببه ، ولهذا قيل : لا يصح على الله التعجب ؛ إذ هو علاَّم الغيوب لا تخفى عليه خافية .. ويُستعار مرة للمُونق فيقال : أعجبني كذا أي : راقني . قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله ﴾ البقرة ٢٠٤ [٤] وقد تُعبِّر الكلمة عن الشعور الخاص حيال الفائت في الحسن أو الفائت في القبح ، وقد يحمل هذا الشعور في طياته دهشةً أو سخريةً أو نفورًا أو ألمًا ، بدرجة تفوق الشعور بها أمام العادي من الأمور مما يوضحه السياق [٥] .

وللتعجب صيغتان قياسيتان هما : ما أفعله ! وأفعلْ به ! ، وصيغ سماعية نحو : لله دَرُّه ، وصيغ من غير لفظه نحو " كبُر " كقوله تعالى :

---

(١) انظر شرح المُفصَّل لابن يعيش ٧ /١٤٢ ، والظاهر أن التعجب وإن بدا قريبًا من " المبالغة " كما في قولك : ما أكرم زيدًا !

و زيد'' مكرام . إلا أن ثمة فروقًا واضحة بينهما ، فالتعجب قائم على الجهالة وانخراق العادة ، الأمر الذي يحصل منه الاندهاش ، وكأن " زيدًا " في المثال الأول ما كان ينبغي أن يكون كريمًا ، إذ يقل في العادة أن يكون مثله كريمًا ، وكأن استعظام أمر الكرم أدَّى إلى الحيرة كيف وصل زيد إلى هذا الحد ؟ ! وهو ربما ليس له بأهل ، بينما أمر المبالغة قائم على إثبات الزيادة والكثرة على جهة التحقق والتثبت ومن هنا جاز في أسمائه ـ سبحانه ـ إثبات صيغة المبالغة وانتفى التعجب في حق الله تعالى . والخلاصة أن المبالغة درجة يحققها المضمون ليصل إلى مستوى الإحاطة الشاملة ملتمسًا أقصى غايات المعنى ، بينما التعجب أسلوب'' ـ غالبًا ـ ما يجنح إلى صيغتيه القياسيتين ، وصيغه السماعية المحددة .

(٢) الإتقان ٣ / ٢٢٨ .

(٣) لسان العرب مادة (ع ، ج ، ب) .

(٤) المفردات / ٥٤٧ .

(٥) انظر بديع التراكيب / ٢٢١ .

﴿ كَــبُرت كلمــةً تَخْــرُجُ من أفواهِهِم ﴾ (١) وكذلك بعض السياقات كسياق الاستفهام نحو قوله تعالى : ﴿ كَيفَ تَكفُرون بالله ﴾ (٢)

ومن بديع سياقات التعجب المبالغة في كفر الإنسان نحو قوله تعالى :

﴿ قُتل الإنسانُ ما أكفره ﴾ (٣)

قــال الزمخشري : { " ما أكفره " تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله ولا ترى أسلوبًا أغلظ منه ولا خشن'' مسًا ، ولا أدل على سخط ولا أبعد شــوطـًا في المذمـــة مع تقارب طرفيــه ولا أجمع للأئمـــة على قِصَرَ متــنه }(٤) فمـــا راعى مقتضيات نشأته وخلقه ولو رعاها لكان أكثر شكرًا وقــربًا وتواضــعـًا من أجل ذلك قال عز من قائل بعدها : ﴿ من أي شيء خلقــه ﴾ (٥) وهــو لفت'' لأصــله الضعيف المهــين . ﴿ من نطفــة خلقه فقدَّره ﴾ (٦) فالشق الأول " من نطفة خلقه " مصدر العَوَز والفقر والاحتياج والشق الثاني " فقدَّره " : منشأ الرحمة والفضل والمنة ؛ إذ جعله شيئـًا من لا شيء ، وأضحى كائنـًا سويـًا ذا قيمة ، يفضل كثيرًا من خلق الله بعد أن كــان شيئـًا غير مذكور . فما سبب هذا الجحود والعناد والإعراض ، فجاء السـياق القرآنــي كاشــفـًا هذا الوجه عن طريق أسلوب التعجب في أروع بيــان . ولذا يلخص " ابن جُزي " هذا في تفسيره لأسلوب التعجب قائــلاً : { " ما اكفره " : تعجيب من شدة كفره مع أنه كان يجب عليه خــلاف ذلك } (٧) ، ومعلــوم'' أن التعجب لا يُنسبُ إلى الله ــ تعالى ــ وإنما يُنسبُ إلى المخلوقين كما قال " أبو حيان " { إذ هو مستحيل '' في حق الله أي هو ممن يُقال فيه ما أكفره } (٨) . وتكمن المبالغة في بيان مدى ما وصل إليه الإنسان من الكفر والعصيان ، وأنه قد تجاوز الحد وانفرط عن سواء السبيل ، وانفلت من دائرة الشكر والعرفان .

---

(١) الكهف / ٥ .

(٢) البقرة / ٢٨ .

(٣) عبس / ١٧ .

(٤) الكشاف ٤ / ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٥) عبس/ ١٨ .

(٦) عبس/ ١٩ .

(٧) التسهيل ٤ / ١٧٩ .

(٨) البحر المحيط ٨ / ٤٢٠ .

ومـــنه المـــبالغة في صبر الكافرين على نار جهنم على سبيل التوبيخ والتهكم كما في قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالةَ بالهدى والعذابَ بالمغفرة **فما أصبرهم على النار** ﴾ (١)

أي مـــا أشـــدَّ صبرهم على نار جهنم { تعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم كما نقول لمن يتعرَّض لما يوجب غضب السلطان ما أصبرك على القيد والسجن تريد أنه لا يتعرض لذلك إلا من هو شديد الصبر على العذاب " (٢) وذلك من جَرَّاء جَرَاءتهم على اقتراف أنواع المعاصـــي دون الـــنظر إلـــى العواقب الوخيمـــة فما أشدَّ إيلامهم وأســـوأ عاقبتهم ! . ومنه قوله تعالى :

﴿ قُـــل اللَّه أعلمُ بما لبثوا له غيبُ السَّمواتِ والأرضِ **أَبْصِر به وَأَسْمِع** مَالَهم من دُونه من وليٍّ ولا يُشركُ في حُكْمِهِ أحدًا ﴾ (٣)

جاء التعجب هنا على صيغة " أفعل به " في قوله عز من قائل :

﴿ أَبْصِر به وَأَسْمِع ﴾ (٤) أي ما أبصره بكل موجود ، وما أسمعه لكل مسموع ؛ لأن الله يدرك الخفيات كما يدرك الجليَّات (٥) وقال الزمخشري : { جاء بما دلَّ على التعجُّب من إدراكه المسموعات والمبصرات للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج" عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين ، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها كما يدرك أكبرها حجمـــًا وأكثفها جُرْمًا ويُـــدرك البواطـــــن كما يدرك الظـــواهر } (٦) . وبعد .. فقد بات واضحًا مـــدى الترابط الوثيق بين التعجب والمبالغة إذ تولى أسلوب التعجب التفاعل والتأثـــير في درجة المبالغة إلى غايتها المرجوة ، واكتسبت المبالغة ـــ من جهة أخرى ـــ فضاءً عريضـــًا بكونها في رحم التعجب .

---

(١) البقرة / ١٧٥ ، هذا الموضع والذي قبله على صيغة ، " ما أفعله " ولم يرد في القرآن غيرهما سوى قولـــه تعـــالى : " يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم " الانفطار/ ٦ وذلك في قراءة سعيد بن جبير والأعمـــــش " ما أغرك " انظر دراسات لأسلوب القـــرآن ٣ / ١٠٩ ، ١١٠ والبحر المحيط ٨ / ٤٢٧ .

(٢) الكشاف ١ / ١٠٨ .

(٣) الكهف/ ٢٦ .

(٤) جاءت هذه الصيغة في آية اخرى في القرآن هي قوله تعالى " أسمع بهم وأبصر " مريم / ٣٨ .

(٥) انظر التسهيل ٢ / ١٨٦ .

(٦) الكشاف ٢ / ٣٨٧ .

جـ - توظيف الحذف للمبالغة :

الحذف لغة : هو الإسقاط والطرح والقطع [1] وفي اصطلاح البلاغيين : " إسقاط جزء من الكلام أو كله بدليل " [2]

وافتُتن البلاغيون بهذا النمط من التعبير ، حتى قال عنه ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) مُردِّدًا ما قاله " عبد القاهر " (ت ٤٧١ هـ) من قبل { أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر ، شبيه'' بالسحر وذاك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتمَّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبن } [3] .

من سياقات الحذف التي وُظِّفت للمبالغة قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [4]

اسأل القرية ... والعير هو من باب حذف المضاف ، وهو باب'' واسع'' في إبراز جماليات الحذف ، وأداء المبالغة [5] والتقدير : اسأل أهل القرية وأصحاب العير [6] بَيْدَ أن النظم القرآني " واسأل القرية .. والعير "بهذا النسق ــ بطيِّ المضاف ــ أحدث في التركيب علاقات جديدةً لم تكن من قبل ، وازداد التعبير بهذا العدول عن النمط المألوف جِدَّةً وطرافة ، تتواءم مع طموح المُتلقي في البحث عن أنماط جديدة تكون دومًا عامل حفز له على إثارة وجدانه وإثراء فكره ، وإشباع حاجة النفس في تمثل المعنى عبر التخييل والتصوير لينسجم مع الإعجاز البياني للقرآن الذي يحمل أبدًا عوامل التجدد والتحوُّل في البناء اللغوي .

---

(١) انظر اللسان مادة (ح ، ذ ، ف) .

(٢) البراهان في علوم القرآن ٣ / ١٠٢ ، انظر رسالتي للماجستير " حذف الكلمة في القرآن الكريم دراسة بلاغية إشراف د . منير سلطان مكتبة قسم اللغة العربية بكلية البنات جامعة عين شمس . مبحث الحذف عند البلاغيين /٤٣ .

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير قدَّمه وعلَّق عليه د . أحمد الحوفي ، ود. بدوي طبانة ــ نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ــ لا طبعة ــ لا تاريخ ٢ / ٢١٩ .

(٤) يوسف/ ٨٢ .

(٥) انظر " حذف الكلمة في القرآن الكريم " مباحث : حذف المضاف وحذف المضافين وحذف ثلاثة مضافات / ١١٠ ــ ١١٥ .

(٦) انظر التسهيل ٢/ ١٢٦ والكشاف ٢ / ٢٧٠ والبحر المحيط ٥ / ٣٣٢ .

وسـياق الآيـة حديث أخوة يوسف لأبيهم عندما أرادوا أن ينبئوه نبأ سـرقة " بنيامين " ـ أخيهم ـ صواع الملك . وقد سبق لهم أن نبأوه نبـأ فقـد " يوسف " شقيق بنيامين بأن الذئبُ أكله فحصل عند أبيهم نوع'' من الشـك فيما قالوا . لكنهم في هذه الحالة الأخيرة صادقون . وهم يعلمون أن هـذا الخبر سيفجر في نفس أبيهم كثيرًا من هواجس الريب والظن . فالمقام مقام اتهام لهم وإنكار لما يقولون . فأرادوا أن يُعبِّروا عن صدقهم وأنهم في هذا الخبر صادقون . فبالغوا في تصوير صدقهم وادَّعوا أن أمر السرقة شاع حتى إن القرية كادت تعلم به ولو سألتها لأجابت فما بالك بأهلها ، وحتى إن العـير ـ التي هي حيوانات'' ـ عُجم كادت تفقه أمر هذه السرقة لكثرة ما ترددت على الألسنة فلو سألتها لأجابت بما نقول ، فما بالك براكبيها ! فالسر إذن وراء هذا الحذف هو قصد المبالغة واشتهار أمر السرقة بدرجة لم يستقم معها شك أو تكذيب (١) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **وأُشربوا في قلوبهم العِجْلَ** ﴾ (٢)

"أُشربوا " عبارة عن تمكُّن حب العجل من قلوبهم ، فهو مجاز تشبيهًا بشرب الماء أو بشرب الصبغ في الثوب وفي الكلام محذوف أي أُشربوا حُبَّ العجـل (٣) قـال ابـن مـنظور {أُشرب فلان'' حب فلانة أي خالط قلبه وأُشـرب قلـبه محـبة هـذا ، أي حلَّ محلَّ الشَّراب وفي التنزيل العزيز : ﴿ **وأُشربوا في قلوبهم العجل** ﴾ أي حب العجل ، فحـذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مُقامه ، ولا يجوز أن يكون العجلُ هو المُشْرَب ، لأن العجل لا يشـربه القلـب ، وقـد أشرب في قلبه حبَّه أي خالطـه . وقال الزجَّاج : " وأشـربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ، قال : معناه سُقوا حُبَّ العِجل ، فحُذف حُبَّ ، وأقيم العِجْل مُقامه } (٤) .

ومنشـأ المبالغة من كون الشرب أُسند إلى العجل لا إلى حبه قال أبو حيَّان : { وأسند الإشراب إلى ذات العجل **مبالغة** كأنه بصورته أشـربوه ،

---

(١) انظـر خصـائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ـ د . عبد العظيم المطعني ـ مكتبة وهبة ـ ط الأولى ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢م ٢ / ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) تمـام الآيـة " وإذ أخذنـا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة ٍ واسمعوا . قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم صادقين " البقرة / ٩٣

(٣) انظر التسهيل ١ / ٥٤ .

(٤) اللسان مادة (ش ، ر ، ب) .

وإن كـــان المعنى على ما ذكرناه من الحذف ، وقيل : معنى أشربوا ، أي : شـــد في قلوبهم حب العجل لشغفهم به ، من أشربت البعير إذا شددتَ حبلاً في عنقه } (١) .

إنهـــا صـــورة حسيَّة لو تصورها المرء ... كيـــف يُشرَبُ العجلُ في القلـــب ؟ ! ومـــا هي إلا دلالة على عمق المأساة في هذا الانحراف العقَدَى المَشـــين في عبادة العجل ، وتغلغل حبه في قلوبهم وإن هذه الصورة لتعكس ــ أيضًا ــ حجم الأكذوبة المُفتراه " شعب الله المختار " وأن الهدى مقصور'' علـــيهم وأنهـــم الذين اختصوا بالآخرة دون سائر الخلق !. فأنيَّ لهم وهذا حالهم ؟ ! .

ومنه قوله تعالى : ﴿ والَّذين تَبَوَّءُوا الدارَ والإيمانَ ﴾ (٢)

قـــال صاحب التسهيل : { فإن قيل : كيف قال : تبوءوا الدار والإيمان وإنما تتبوأ الدار أي تسكن ، ولا يتبوأ الإيمان ؟ فالجواب من وجهين : الأول أن معـــناه تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان فهو كقولك : علفتها تبنـــًا ومـــاءً بـــاردًا . تقديره : علفتها تبنـــًا وسقيتها ماءً باردًا . والثاني : أن المعنى أنهم جعلـــوا الإيمان كأنه موطن'' لهم لتمكنهم فيه كما جعلوا المدينة كذلك } (٣)
وقـــال الصـــاوي على الجلالين : { والمعنى : لزموا الدار والإيمان أو شبه تمكنهم في الإيمان باتخاذه منزلاً ففيه جمـــع'' بين الحقيقة والمجاز } (٤) .

وروعـــة التركيـــب ــ هنا ــ في تصوير الإيمان بالمنزل الذي سكنه الأنصار وهو دلالة على مبالغتهم فيه ، وتمكنهم منه ؛ إذ استقروا في الإيمان كاســـتقرارهم فـــي الـــدور والأوطان " وهذا من صميم البلاغـــــة ولُباب الفصاحة ، وقد زاد اللفـــظ المستعار ههنا معنى الكلام رونقـــًا ألا ترى كـــم

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٧٦ ، ٤٧٧ .

(٢) تمـــام الآية " والذين تَبوَّءُوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون " الحشر/ ٩

(٣) التســـهيل ٤ / ١٠٩ ، وانظـــر الكشـــاف ٤ / ٨٢ ، والبيضاوي ٢ / ٤٨١ وأبا السعود ٨ / ٢٢٩ ، والبحر المحيط ٨ /٢٤٥ ، والقرطبي ١٠ / ٦٧٤٤ والتحرير والتنوير مجلد ١٣ جزء ٢٨ / ٩٠ .

(٤) الصاوي على الجلالين ٤ / ١٦٠ .

بين قولنا : استقروا في الإيمان ، وبين قولنا : تبوءوا الإيمان وأنا أقول أبدًا أن الألفاظ خدم" للمعاني لأنها تعمل في تحسين معارضها وتنميق مطالعها } (١) .

لقد كان الإيمان للصوقهم به دارهم ونزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم وتسكن إليه أرواحهم ويثوبون إليه ويطمئنون له كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار . وهنا مكن المبالغة ؛ فليس الإيمان إطارًا هامشيًا ، أو ظِلاً منتقلاً ، أو غطاءً زائلاً بل موطنًا ومحلاً ومستقرًا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ (٢)

المعنى : أن المستضعفين قالوا للمستكبرين بل مكركم بنا في الليل والنهار سبب كفرنا ، وأضاف مكر إلى الليل والنهار على وجه الاتساع ويحتمل أن يكون إضافة إلى المفعول أو إلى الفاعل على وجه المجاز : كقولهم نهاره صيام وليله قيام أي يصام فيه ويقام ، ودلَّت الإضافة على كثرة المكر ودوامه بالليل والنهار (٣) ومن ثمَّ جاءت المبالغة دالةً على كثرة المكر وديمومته ليلاً ونهارًا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ (٤)

ليرتدع هذا الفاجر " أبو جهل " عن غيِّه وضلاله ، فوالله لئن لم ينتهِ عن أذى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لنأخذنه بناصيته ، فلنجرنه إلى النار بعنف وشدة وقوله تعالى : ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ أي صاحب هذه الناصية كاذب { ووصفها بالكذب والخطيئة تجوزًا والكاذب الخاطيء في الحقيقة صاحبها والخاطيء الذي يفعل الذنب

---

(١) تلخيص البيان / ٣١٢ .

(٢) تمام الآية " وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادًا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون " سبأ/ ٣٣ .

(٣) انظر التسهيل ٣ / ١٥١ .

(٤) العلق/ ١٥ ، ١٦ .

مـــتعمدًا والمخطيء الذي يفعله بغير قصد } [١] قال البيضاوي : (ووصفها بالكذب والخطأ ، وهما لصاحبها على الإسناد المجـــازي **للمبالغة**) [٢] تلك التي تـــــدل على قوة الكـــــذب المتمكنة فيه وشـــدته قـــال الألوســـي : (و وصـــف الناصية بما ذكر مع أنه صفة صاحبها **للمبالغة** حيث يدل على وصـــفه بالكذب والخطأ بطريق الأولـــى ، ويفيد أنه لشدة كذبه وخطئه كأن كـــل جـــزء من أجزائه يكذب ويخطـــــأ وهو كقوله تعالـــــى : ﴿ تصف ألسنتهم الكذب ﴾ النحل ٦٢) [٣] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى **قالوا سلامًا قال سلامٌ** فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذٍ ﴾ [٤]

فـــي الآيـــة حذفان : الأول قول الملائكة : " قالوا سلامًا " والتقدير : ســـلمنا علـــيك سلامًا والآخر قول نبي الله إبراهيم عليه السلام " قال سلام " والتقدير : أمري أو أمركم سلام أو عليكم سلام" [٥] .

ومـــدار المـــبالغة فـــي رد إبراهيم حيث أجاب سلامهم القائم في نظم الجملة الفعلية الدال على التجدد بسلامه المنتظم في الجملة الإسمية الدال على الثـــبوت والاســـتقرار ورده هنا ينسجم مع قوله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ [٦] . حيث زاد في التحية ، وبالغ في الرد ، فكان رده ممزوجًا بالمبالغة في التحية ، والزيادة في التقدير .

---

(١) التسهيل ٤ / ٢٠٩ .

(٢) البيضاوي ٢ / ٦١٠.

(٣) روح المعاني ٣ / ١٨٧ .

(٤) هود / ٦٩ .

(٥) انظر البحر المحيط ٥ / ٢٤١ .

(٦) النساء / ٨٦ .

د – توظيف الالتفات للمبالغة :

الالـتفات : هـو نقـل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية ً ، واسـتدرارًا للسـامع ، وتجديـدًا لنشـاطه ، وصيانة لخاطره من المـلال والضـجر ، بـدوام الأسلوب الواحد على سمعه [١] وفي التراث البلاغي والـنقدي طائفـة من المصطلحات التي تواردت مع مصطلح الالتفات على ظاهـرة " التحول الأسلـوبي " مثـل " الصرف " و " العـدول " و " الانصـراف " و " الـتلون " و " مخـالفة مقتضى الظاهر " و " شجاعة العربية " .

وأبـرز مجـالات الالتفات في القـرآن كما يراها د . حسن طبل [٢] هي :

١– الصيغ ٢– العدد

٣– الضمائر ٤– الأدوات

٥– البناء النحوي ٦– المعجم

وقد ُوظّف الالتفات للمبالغة في نماذج متعددة منها قوله تعالى :

﴿هوالَّذي يُسَيِّركم في البرِ والبحرِحتَّى إذا كُنْتم في الفُلْـك وَجَرَيْن بهم﴾[٣]

بدأت الآية الكريمـة بمخاطبة المخاطبين { مؤمنين وكافـرين } (يسيركم ــ كنتم) ثم تحوّل النسق إلى الإخبـار عنهم بضمير الغيبـة (وجريـن بهـم) فمـا فـائدة هذا العدول عن " الخطاب إلى الغيبة " قال الزمخشـري { " فـإن قلت " ما فائدة صرف الكـلام عن الخطـاب إلى الغيبة " قلت " **المبالغة** كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح " [٤] .

---

(١) انظر البرهان ٣ / ٣١٤ .

(٢) انظر أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ــ د . حسن طبل ــ أغسطس ١٩٩٠م / ٦٣ .

(٣) تمـام السـياق : " هـو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفـرحوا بهـا جاءتهـا ريـح" عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوًا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . لما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحـق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون " يونس/ ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) الكشاف ٢ / ١٨٦ ، وانظر البرهان ٣ / ٣٢٩ .

وبعد أن نقل " أبو حيان " كلام الزمخشري هذا قال معلّقـًا : (والذي يظهر والله أعلم : أن حكمة الالتفات هنا هي أن قوله : ﴿ هوالذي يسيركم في البر والـبحر ﴾ خطـاب فيه امتنان وإظهار نعمه للمخاطبين والمسيرون في البر والبحر ، مؤمنون وكُفّـار ، والخطاب شامل ، فَحَسُن خطابهم بذلك ليستديم الصـالح علـى الشكر ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة ، فيرجع ، فلما ذكرت حالـة آل الأمـر في آخرها إلى أن الملتبس بها هو باغٍ في الأرض بغـير الحـق ، عـدل عن الخطاب إلى الغيبة ، حتى لا يكون المؤمنون يخاطبون بصـدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي) [1] وهذا الذي ذهب إليه " أبو حيان " أقرب ــ في رأيي ــ وألصق بالدلالة ، فصدر الآية فيه إظهار لمنن الله وفضله على الخلق أجمعين ، فلما جاء ختام السياق متلبسـًا بالحديث عن الشـرك والبغـي أتى هذا اللفت الجمالي وانتقل السـياق من " الخطاب إلى الغيـبة " مـبالغة في إكرام المؤمنين حتى لا يندرجوا معهم في البغي وجاء الالـتفات في الوقت نفسه توبيخًا وتقبيحًا لتلك الفئة الباغية بعد شمول المنن السابقة من الله عليهم .

ومنه الالتفات في الصيغ من صيغة اسم الفاعل إلى صيغة المبالغة كما في قوله تعالى : ﴿ إنّا هديناه السبيلَ إما **شاكرًا** وإما **كفورًا** ﴾ [2] .

فقـد جـاء السياق في الموضع الأول بصيغة اسم الفاعل للدلالة على الشكر " شاكرًا " ثم التفت عنها إلى صيغة المبالغـة عند التعبير عن الكـفر " كفورًا " وهو التفات يحقق غايتين في آنٍ واحدٍ :

الأولـى : التوازي أو التوازن الإيقاعي بين الفواصل ؛ فقبل هذه الآية وبعدهـا كانـت الفواصـل مبنـية على روي الراء المتلوة بألف الإطلاق والمردوفة بالمد الواويّ أو اليائي (مذكورًا ــ بصيرًا ــ سعيرًا) ، من ثم كـان التحول عن (كافرًا) إلى (كفورًا) ، إذ إن الأولى تفتقد الردف الذي تتوازن به فاصلة الآية مع قريناتها في السياق [3] .

---

(١) البحر المحيط ٥ / ١٤٢ .

(٢) الإنسان/ ٣ .

(٣) انظر أسلوب الالتفات / ٩٠ .

الثانـــية : المـــبالغة التي تنفرد بها الصيغة الثانية دون الأولى ، والتي تجسد البون الشاسع بين إقبال الإنسان على الشكر وإقباله على الكفر فهو لا يخطـــو خطـــوة فـــي طريق الشكر إلا خطا في طريق الكفـــران والجحود أضعافها .

قـــال أبـــو حيان : (ولما كان الشكر قل من يتصف به قال " شاكرًا " ولما كان الكفر كثر من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر جاء " كفورًا " بصيغة المبالغة) [١] وهذا يتواءم مع وصف القرآن للإنسان بأنـــه قلـــيل الشكر كثير النكران نحو قوله تعـــــالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ [٢] .

وقوله : ﴿ وَلا تَجِدُ أَكْثرهم شَاكِرين ﴾ [٣] .

وقوله : ﴿ إِنَّ الإنسانَ لظلومٌ كفَّـــارٌ ﴾ [٤] .

وقد لمس البيضاوي نكتة دقيقة في هذا التحول عن صيغة اسم الفاعل إلـــى صـــيغة المبالغة في الآية ؛ فهو يرى أن في العدول عن (شاكرًا) إلى (كفورًا) إشعارًا بأن الإنسان ــ غالبـــًا ــ لا يخلو من كفران ، وأن الله عز وجـــل رحمته واسعة بعباده لا يؤاخذهم على قليل الكفران والجحود بل على المبالغة والتوغل فيه [٥] .

ومن الالتفات في الصيغ أيضًا قوله تعالى :

﴿ وَما هذِهِ الحَيَاةُ الدنيا إلا لَهْوٌ ولعبٌ وإنَّ الدارَ الآخرَة لهيَ الحيوانُ لَوْ كَانوا يَعْلمون ﴾ [٦] .

---

(١) البحر المحيط ٨ / ٣٨٧ .

(٢) سبأ/ ١٣ .

(٣) الأعراف/ ١٧ .

(٤) إبراهيم/ ٣٤ .

(٥) انظر البيضاوي ٢ / ٥٥١ ، وانظر أسلوب الالتفات / ٩٠ .

(٦) العنكبوت/ ٦٤ .

الالـتفات بيـن صـيغتي { الحياة ــ الحيوان } وهما بمعنى واحد ، فمـردهما إلى أصل واحد هو "حيي" [1] بَيْد أن الصيغة الثانية " الحيوان " إنمازت في كونها أدل على المبالغة ، لأنها على بناء " فَعَلان " المُعبِّر عن الحركة والقوة ، فهي تدل على الحياة المستمرة أبدًا فلا تنقطع وهذا ما لم تفده الصـيغة الأولى " الحياة " قال الزمخشري : (في بناء الحيوان زيادة معنى لـيس في بناء الحياة وهي ما في بناء فَعَلان من معنى الحركة والاضطراب كالـنزوان والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك ، والحياة حركة كما أن الموت سكون فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة **مبالغة** في معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحيـاة في هذا الموضع المقتضى **للمبالغة**) [2] .

ويعلـق د . حسـن طبل على الآية مُبرزًا جمال الالتفات ، ومبالغته فـيقول : فـي التحول إلىصيغة الحيوان مع الدار الآخرة مبالغة في تحقق معـنى الحياة في تلك الدار ، والإشعار بأنها هي الجديرة بأن تُسمَّى حياة ، وقـد حفلـت الآية الكريمة بما يدعم هذا التحول ، ويُعمِّق دلالته على سموّ الحياة الأخروية بالقياس إلى الحياة الأولى فلنتأمل :

ــ بيـنما بولـغ في إثبات معاني اللهو واللعب للحياة الأولى بأسلوب القصر " ما ــ إلا " بولغ في المقابل في إثبات معنى الحياة للدار الآخرة بـ " إن " و " اللام " وتعريف طرفي جملة الخبر " لهي الحيوان " .

ــ بيـنما وردت صيغة الحياة مُقيَّدة بالوصف " الدنيا " وردت صيغة الحـيوان مطلقة بلا وصف ، وذلك للإشعار بأن الحياة الأخروية في تساميها أبعد من أن يحيط بها وصف .

ــ بيـنما وقعـت صيغة الحياة مبتدأ أخبر عنه باللهو واللعب ، وقعت صـيغة الحيوان في جملة الإخبار عن الدار الآخرة ، فكأن هذه الدار ليست مجرد وعاءٍ أو مسرح للحياة الأخروية بل إنها ذاتها حياة [3] .

---

(١) قال الراغب : (" لهي الحيوان " أن الحَيَوان الحقيقي السرمدي الذي لا يفنى ، لا مايبقى مُدَّةً ثم يَفنى ، وقـال بعض أهل اللغة : الحَيَوان والحياة واحد'' وقيل الحيوان : ما فيه الحياة ، والمَوَتَان ما ليس فيه حياة) المفردات / ٢٦٩ .

(٢) الكشاف ٣ / ١٩٥ .

(٣) انظر أسلوب الالتفات / ٨٨ .

ومنه الالتفات في البناء النحوي كما في قوله تعالى :

﴿ لكن الرَّاسخون في العِلْم منهم والمؤمنونَ يُؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنــزل مــن قبلك والمُقيمين الصلاة والمؤتونَ الزكاةَ والمؤمنونَ بالله واليوم الآخر أولئك سَنؤتيهم أجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

ففــي قوله تعالى : ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ خروج عن نسق الآية وهو هــنا الــرفع وكان من المنتظر طبقــًا للسياق أن تأتي " والمقيمون الصلاة " حتى ظن البعض أنه وقع لحنــًا في القــــــرآن كما قــال " الزمخشري " : { ولا يلتفــت إلــى ما زعموا من وقوعه لحنــًا في خط المصحف ، وربما التفــت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب ، وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان } (٢) .

ومــن ثم فإن هناك شكــًا فيما ورد عن السيدة عائشة رضى الله عنها حيــث قالت عن قوله تعالى : ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ : (هو من لحن كُتَّاب المصحف) (٣) وقد اختلف المفسرون في تأويل العامل المحذوف (٤)

هذا العــــدول عــــن النسق أعطــــى المتلقي افتتانــًا وجمالاً ، " فالاختصاص " أو " المدح " ما كان ليأتيا لولا هذا المساق اللغوي المقصود ، وهذا الطيّ المتعمد ، فالمخالفة ــ هنا ــ هي من قبيل المخالفة الفنية التي تســمح بــتوافر هــذا السياق الجمالي ثم هي تعطي من جهة أخرى تكثيفــًا للمعــنى . إن هذا الضرب في الفن البلاغي يُعَدُّ نوعًا من التمرُّد على الإلف اللغــوي الشائع ، وإيثار لنمطٍ فنيٍّ من شأنه أن يثري دائمًا البحث اللغوي والبلاغــي بما يمنحه من دلالات وظواهر لغوية وبلاغية تسهم في بيان نظم القــرآن وإعجــازه . وهنا تكثَّفت الدلالة حول إقامة الصلاة لمزيد الاهتمام بشأنها والمبالغة في أدائها على الوجه الأكمل .

---

(١) النساء/ ١٦٢ .

(٢) الكشاف ١ / ٣١٣ .

(٣) التسهيل ١ / ١٦٤ .

(٤) ذهب كلٌّ من الزمخشري والبيضاوي إلى أن النصب على المدح ، وذهب أبو السعود في تفسيره إلى أن النصــب على الاختصاص . انظــــــــر الكشاف ١ / ٣١٣ والبيضاوي ١ / ٢٤٨ وأبا السعود ٢ / ٢٥٤ .

ومنه الالتفات في الضمائر { خطاب ـ غيبة } للمبالغة في التوبيخ نحو قوله تعالى : ﴿ لَوْلا إذ سَمِعْتُموه ظَنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفسهم خيرًا وقالوا هذا إفك'' مبين ﴾ (١).

حيث تحوّل السياق من الخطاب والضمير في قوله تعالى : ﴿ سمعتموه ﴾ إلى الغائب والظاهر في قوله عز وجل ﴿ ظن المؤمنون ﴾ وكان التقدير " لولا إذ سمعتموه ظننتم " فما سرُّ هذا الالتفات ؟ قال أبو حيان { عدل بعد الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر فلم يجيء التركيب ظننتم بأنفسكم خيرًا وقلتم ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات ، وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدق مؤمن'' على أخيه قول عائب ولا طاعن ، وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه أن يبني الأمر فيه على ظن الخير ، وأن يقول بناءً على ظنه " هذا إفك مبين " هكذا باللفظ الصريح ببراءة أخيه ، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال ، وهذا من الأدب الحسن } (٢).

هـ - توجيه الخطاب للمبالغة :

أفرد " الزركشي " مبحثًا في سفره القيم " البرهان " أسماه : { في وجوه المخاطبات والخطاب في القرآن } (٣) أورد فيه بعض المخاطبات التي اتسمت بالمبالغة في صفات معينة مثل التكريم والتحبيب والتنفير والاستهزاء والتعجيز والتحسير ومن نماذج التكريم قوله تعالى :

﴿ فإلم يَسْتَجيبوا لَكم فَاعْلَموا أنَّما أُنزِلَ بعِلْمِ اللهِ وأن لَّا إله إلا هُوَ فَهَلْ أنتم مُسْلمون ﴾ (٤).

---

(١) النور/ ١٢ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٤٠٢

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن ٢ / ٢١٧ ـ ٢٥٣ .

(٤) هود / ١٤

أورد " الزركشي " الآية تحت عنوان " خطاب " الواحد بلفظ الجمع [1] والمُخاطَب ـ هنا ـ هو النبي صلى الله عليه وسلم ـ بخطاب الجمع تعظيمًا وتكريمًا .

قال الزمخشري : { يجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ } [2] .

ومنه تنويع الخطاب تكرمة لنبي الله موسى في قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3] .

قال الزمخشري : { (فإن قلت) كيف نوَّع الخطاب فثنَّى أولا ثم جمع ثم وحَّد آخرًا (قلت) خوطب موسى وهارون عليهما السلام أن يتبوآ لقومهما بيوتًا ويختاراها للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء ثم سيق الخطاب عامًّا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ؛ لأن ذلك واجب'' على الجمهور ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض تعظيمًا لها وللمُبشر بها } [4] .

فقد نُوِّع الخطاب من التثنية في قوله " تبوآ " إلى الجمع في قوله " واجعلوا " ثم إلى الإفراد بالبشارة في قوله " وبشر ِ المؤمنين " مبالغة في تكريم موسى عليه السلام واختصاصًا له بالتعظيم .

ومنه في تكريم أبي بكر الصديق قوله تعالى :

﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ'' رَحِيمٌ ﴾ [5] .

---

(١) انظر البرهان ٢ / ٢٣٥ .

(٢) الكشاف ٢ / ٢١٠ ، وانظر البحر المحيط ٥ / ٢٠٩ ، والتسهيل ٢ / ١٠٢ .

(٣) يونس / ٨٧ .

(٤) الكشاف ٢ / ٢٠٠ ، وانظر البرهان ٢ / ٢٤١ ، ٢٤٢ ، والبحر المحيط ٥ / ١٨٥ .

(٥) النور / ٢٢ .

هـذا من باب خطاب الواحد بلفظ الجمع ، فالمُخاطَـبُ ــ هنا ــ أبو بكـر الصديق لما حرم مِسطحـًا رفـْدَه حين تكلم في حديث الإفك ولذا لما نزل قوله تعالى : ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ قال إني لأحب أن يغفر الله لي ، ثم ردَّ النفقة إلى مسطح (١) .

والآيـة دالة على فضل أبي بكر الصديق فإن الله تعالى امتدحه بقوله سبحانه : ﴿ وَلا يأتلِ أولو الفضْلِ ﴾ من جهتَين :

الأولى : نسبته إلى الفضل والسعة .

والأخرى : خطابه بخطاب الجمع " أولو" .

وكفى بهما دليلاً على فضل أبي بكر رضى الله عنه وأرضاه .

ومـنه خطاب التحبيب والمبالغة في التلطف واللين مثل الحوار الرفيق من نبي الله " إبراهيم " عليه السلام لأبيه في قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُر في الكتابِ إبراهيم إنَّه كان صِدِّيقـًا نَبيـًا * إذ قال لأبيه يا أبت لِمَ تَعـبد ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنك شيئـًا * يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطـًا سويًا * يا أبتِ لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيًا * يا أبتِ إني أخاف أن يَمَسَّك عذابٌ من الرحمن فتكون للشيطان وليـًا ﴾ (٢) .

قـال الزمخشـري : { انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطـًا فـيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمـر العقـلاء ، وانسـلخ عن قضية التمييز "كيف رتَّب الكـلام معه في أحسن اتسـاق ، وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصحـًا في ذلك بنصيحة ربه عزَّ وعلا .. وذلك أنه طلب منه أولاً العلة في خطئه طلـبَ مُنبِّه على تماديه ، موقظٍ لإفراطه وتناهيه ... ثم ثنـَّى بدعوته إلى الحق مترفقـًا به متلطفًا فلم يُسمِّ أباه بالجهـل المفـرط ولا نفسه بالعلم الفـائق ولكنه قـال : إن معـي

(١) انظر البرهان ٢ / ٢٣٥ ، والتسهيل ٣ / ٦٣ .

(٢) مريم / ٤١ ــ ٤٥ .

طائفةً مـن العلـم ، وشيئـًا منه ليس معك وذلك علم الدلالة على الطريق السـويّ فـلا تسـتنكف ... ثم ثـلـّث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عـنده هو عَدُوُّك الذي لا يريد بك إلا كُل هلاك وخزي ونكال ... ثم ربَّع بـتخويفه سوء العاقبة وبما يجرُّه ما هو فيه من التبعة والوبال ولم يخل ذلك مـن حسـن الأدب حيـث لم يُصرِّح بأن العقاب لا حق له ، وأن العذاب لاصـق'' بـه ولكنه قال أخاف أن يَمَسَّك عذاب'' فذكر الخوف ، والمسّ ، ونكـرَّ العـذاب ... **وصدَّر كل نصيحة من النصـائح الأربع بقوله يا أبت توسُّلاً إليه واستعطافـًا** } (١) .

فـأي لطف بليغ اتصف به نبي الله إبراهيم عليه السلام ؟ ! وأي أدبٍ رفـيع اتـَّسم به في هذه الرقعة القرآنية السامقة التي تنطق بأدب الحوار ، وتقديم الحُسنى في الخطاب ، ووجوب اتشاح الداعية بالفن العالي في أسلوب تبلـيغ الدعـوة ، ومـراعاة حسـن التنظير والتنظيم في الحديث حيث ابتدأ الخطـاب بقوله " يا أبتِ " دلالة على شدة الحب و جذب انتباهه واستعطافه للاستماع لحديثه بعد ، وقد رتب كلامه معه ترتيبًا منطقيًا فنبه :

أولاً : إلى بطلان عبادة الأوثان .

ثانيًا : أمره برفق باتباعه في الاستدلال وترك التقليد الأعمى .

ثالثـًا : ذكـَّره بأن طاعة الشيطان غير جائزة وغير مقبولة عقلاً .

رابعـًا : خـتم الكـلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق .

ومنه استعطاف نبي الله هارون أخاه موسى عليهما السلام مرتين :

الأولـى : فـي الأعـراف وهـو قوله تعالى : ﴿ **قَالَ ابنَ أُمَّ** إن القومَ اسْتَضْـعفُوني وَكادُوا يَقْتلونني فلا تُشْمِت بي الأعداءَ ولا تَجْعلْني مَع القومِ الظّالمين ﴾ (٢) .

---

(١) الكشاف ٢ / ٤١٢ .

(٢) الأعراف/ ١٥٠ .

والأخرى في طه وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا بْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (١) .

قال الزمخشري : { أضافه إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطنٍ واحدٍ وذلك أدعى إلى العطف والرقة وأعظم للحق الواجب ، ولأنها كانت مؤمنةً فاعتد بنسبها ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها } (٢) .

فالخطاب فيه مبالغة في التلطف والترفق إذ كان شقيقه ولكنها عادة العرب تتلطف وتتحنن بذكر الأم كما قال :

يَا ابْنَ أُمِّي وَيَا شُقَيِّقَ نَفْسِي (٣)

ومنه خطاب التنفير كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

وقد بيَّن " أبو السعود " ما في الآية من مبالغة بل مبالغات من فنون شتى فقال : { تمثيل وتصوير لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره عنه ومن حيث تعلقه بصاحبه على **أفحش وجه وأشنعه طبعًا وعقلاً وشرعًا مع مبالغات من فنون شتى** : الاستفهام التقريري ، وإسناد الفعل إلى أحد إيذانًا بأن أحدًا من الأحدين لا يفعل ذلك ، وتعليق المحبة بما هو في **غاية** الكراهية ، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، وجعل المأكول أخًا للآكل وميتًا } (٥) .

---

(١) طـه/ ٩٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٩٥ .

(٣) انظر البحر المحيط ٥ / ٣٩٤ .

(٤) الحجرات / ١٢ .

(٥) أبو السعود ٨ / ١٢٢ ، وانظر الكشاف ٤ / ١٥ ، والتسهيل ٤ / ٦١ ، والبيضاوي ٢ / ٤١٧ ، والبحر المحيط ٨ / ١١٤ ، والقرطبي ٩ / ٣٨٥ ، والتحرير والتنوير مجلد ١٢ ٢٦ / ٢٥٥ ، ٢٥٦

والـلافت أن هذا التركيب حوى تلك المبالغات وهذه اللوحات التنفيرية الملاحقـة لتصوير الاغتياب بأقبح صوره ، وأفحشها تخيلاً مما يؤدي إلى تكاثف الدلالة لدى المتلقي ، فيبادر إلى كراهية هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، الداعي لكراهية الاغتياب بشتى صوره وأشكاله .

ومنه خطاب التهكم للمبالغة في الاستهزاء كما في قوله تعالى :

﴿ ذُقْ إنَّكَ أنت العزيزُ الكريمُ ﴾ (١) .

بعـد قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فاعْتِلوه إلى سَواء الجَحِيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ (٢) .

يقال هذا للكافر على سبيل الإهانة والاستهزاء قال عكرمة : التقـى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأبي جهل فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرنـي أن أقول لك ﴿ أولى لك فأولى ﴾.(٣) فقال : بأي شيء تهددني! والله ما تستطيع أنت ولا ربك ان تفعلا بي شيئـًا ، إني لمِن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه فقتله الله يوم بدر وأذلـه ونزلت هذه الآية (٤) .

ومنه خطاب التعجيز نحو قوله تعالى :

﴿ وَإنْ كُنْتُم في رَيْبٍ مِمَّا نزَّلنا على عَبْدنا **فأتوا** بِسُورة **من** مِثْلِه ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ أمْ يقولون افْتَراه قل فَأْتوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِه مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (٦) .

وقوله : ﴿ فليأتوا بِحَديثٍ مِثْله إن كَانوا صَادِقين ﴾ (٧) .

---

(١) الدخان / ٤٩ .

(٢) الدخان /٤٧ ، ٤٨ .

(٣) آيـة فـي سورة القيامة هي الآية الرابعة والثلاثون ، والمعنى : ويل" لك أيها الشقي ثم ويل" وقد أجمع المفسرون أنها نزلت في أبي جهل .

(٤) انظر القرطبي ٩ / ٦٢٠٠ .

(٥) البقرة / ٢٣ .

(٦) هود/ ١٣ .

(٧) الطور/ ٣٤ .

والمعنى إن كنتم أيها الناس في شكٍ وارتيابٍ من صدق هذا القرآن المعجز في بيانه ، وتشريعه ، ونظمه المُنزَّل على عبده ورسوله محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأتوا بسورة واحدة والسياقات الأخرى بعشر سور أو بحديثٍ مثله إن كنتم صادقين ، بَيْد أن هذه السياقات وردت على سبيل التعجيز قال أبو حيان : { اقتضاء ذلك كونهم عاجزين عن الإتيان سواء اجتمعوا أو انفردوا وسواء كانوا أميين أم كانوا غير أميين } (١) .

ومنشأ المبالغة ــ هنا ــ هو الوصول إلى أقصى آيات التحدي " إنها سورة واحدة ... ومع هذا لم يستطع أحد'' من الأولين ولا من الآخرين أن يأتي بالمطلوب ، والتحدي على الرغم من أنه بليغ عجيب إلا أن الأعجب منه هو الجزم بعدم إمكانه " ولن تفعلوا " ، وكأن القرآن بهذا يضيف معجزة إلى سائر معجزاته في كون التحدي باقيًا لكل منكر أوتي مجامع الكلم ، ورزق السلاسة في اللغة ، والروعة في البيان ، والدُّربة في الأداء اللغوي الرفيع ، وهكذا أبد الدهر حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً .

ومنه خطاب التحسير والتقريع كما في قوله تعالى :

﴿ قُلْ مُوتوا بِغَيْظِكم إنَّ الله عليم'' بذاتِ الصُّدورِ ﴾ (٢) .

الأسلوب قائم على التقريع والإغاظة كما يقول القائل : مت بدائك أي : أبقى الله داءك حتى تموت به ، ويجوز ألاَّ يكون ثمَّ قول ، وأن يكون أمرًا يُطيِّب النفس ويقوِّي الرجاء والاستبشار بوعد الله ، أن يهلكوا غيظًا بإعزاز الإسلام وإذلالهم به ، كأنه قيل : " حدِّث نفسك بذلك " (إن الله عليم'' بذات الصدور) (٣) .

وإذا ربطنا هذا الموضع بالسياق وجدنا الآيات تتحدث عن المنافقين والنهي باتخاذهم بطانة ، لأنهم يتمنون من كل قلوبهم الفساد و المشقة

---

(١) البحر المحيط ١ / ٢٤٦ .

(٢) تمام السياق " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تُخفي صدورهم أكبر قد بيَّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خَلَوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم'' بذات الصدور " آل عمران /١١٨ ، ١١٩ .

(٣) انظر الكشاف ٣ / ٤٤ ، ٤٥ .

للمؤمنيـــن " ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر " قال الزمخشري : { العنت شدة الضرر والمشقة وأصله انهياض العظم بعـــد جبره اي تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم **أشد الضرر وأبلغه** " قد بدت البغضاء من أفواههم " لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملـــهم علـــيها أن ينفلـــت من ألسنتهم ما يعـــلم به بغضهم للمسلمين } (١) فمن شدة البغضـــاء ظهـــر على ألسنتهم ، ومن شدته أخذوا بعضون أناملهم من الغيظ ومـــن هـــنا جاء السياق القرآني منتظمـــًا متوازيًا مع هذا الحجم الكبير من البغضاء ، وذاك الشحن الشديد من الحقد على الإسلام والمسلمين ﴿ قل موتوا بغـــيظكم﴾ فلـــيس بوســـعكم أن تفعلوا شيئـــًا ، وليس بمقدوركم أن تنالوا من الإسلام والمسلمين ، كما أنكم لستم بمستطيعين أن تبثوا هذا الســـمَّ المكتم إلا بالقدر الذي حدده الله ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ (٢) . أما الكيـــد والمكـــر ﴿ فلا يحيق المكر السَّيء إلا بأهله ﴾ (٣)

كذلـــك قولـــه تعـــالى : ﴿ مَنْ كان يَظـــُنُّ أن لن يَنْصُره الله في الدنيا والأخـــرة فَلْـــيَمْدُد بسبب ٍ إلى السَّماءِ ثم ليقطع فلينظرْ هل يُذهبن كيـــدُهُ ما يغيظُ ﴾ (٤)

هـــذه الصـــورة جدُّ قريبة من الصورة السابقة في الإغاظة والتهكم ، فـــالأولى : دعـــاء علـــى الحاقد بأن يموت بغيظه فما هو بمستطيع أن يفعل بغيظه شيئـــًا .

وهـــذه : صورة تُجَسِّم الحـــالة القصوى التي وصل إليها ذاك اليائس

---

(١) الكشاف ١ / ٢١٣ .

(٢) آل عمران/ ١١١ .

(٣) فاطـــر / ٣٥ ، قـــال سيد قطب : (ومرة بعد مرة تصفعنا التجارب المُرَّة ، ولكننا لا نفيق .. ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر ، ومرة بعد مرة تنفلت ألسنتهم فتـــنم عـــن أحقادهم حتى لا يذهب بها ود يبذله المسلمون ، ولا تغسلها سماحة يعلمها لهم الدين .. ومع ذلـــك نعـــود ، فنفتح لهم قلوبنا ونتخذ منهم رفقاء في الحياة والطريق ! .. وتبلغ بنا المجاملة أو تبلغ بنا الهـــزيمة الروحـــية أن نجاملهم في عقيدتنا فنتحاشى ذكرها .. وفي تزوير تاريخنا وطمس معالمه كي نتقي فيه ذكر أي صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين .. ومن هنا نلقى العنت الذي يوده عداؤنا لنا) الظلال ١ /٤٥٢ ، ٤٥٣ .

(٤) الحج/ ١٥ .

مـــن نصر الله ورجائه بأن يعمد إلى حبل فيتعلق به بعد أن يكون قد ربطه فـــي سقف بيته ، ثم ليقطع ليسقط في النهاية منخنقـــًا .. ثم لينظر هل ينقذه تدبـــيره هـــذا كمـــا يغيظه ، وفي هذا مبالغة في التهكم ، وتقريع شديد لذلك الـــيائس الـــبائس قال أبو حيان : { إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة ، فمـــن كـــان يظـــن من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه ويغيظه أنه لا يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغـــيظه ، بـــأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدَّ حبلاً إلى ســـماء بيـــته فاختنق فلينظر ، وليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصـــر الله الذي يغيظه } [1] ويبدو أن الصورتين قد تميزتا بأنهما كانتا ردًا على عنصري الشدة والمبالغة في الفعل : ففي الأولى جاء الموت بالغيظ ردًا علـــى المـــبالغة في إظهار الغيظ حتى طفا على السطح ، فانفلت من الألسنة والأفواه " قد بدت البغضاء من أفواههم " وما ذاك إلا للاكتظاظ وبلوغ الغاية في الحقد والبغضاء ، وجاءت الصورة الأخرى " فليمدد بسبب إلى السماء " ردًا علـــى الـــيأس المُطـــْبق وانقطاع الرجاء المنقطع النظير في نصر الله لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في الدنيا والآخرة .

و- توظيف التكرار للمبالغة :

التكرار : ظاهرة أسلوبية عالجها البلاغيون والنقاد ، ويُقصد به إعادة ذكـــر أداة أو كلمـــة أو فاصلة أو قصة في موضع آخر أو مواضع متعددة ، وقـــال ابـــن الأثير عن غرضه : " إن التكرير إنما يأتي لما أهمَّ من الأمر ، بصرف العناية إليه ليثبت ويتقرَّر " [2] .

ومـــثال ذلك قولنا " لا إله إلا الله وحده لا شريك له " لأن قول " لا إله إلا الله " مـــثل قـــول " وحده لا شريك له " { وهما في المعنى سواء ، وإنما كررنا القول فيه لتقرير المعنى وإثباته ، وذاك لأن من النـــاس من يُخـــالفُ

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٣٢ .

(٢) المـــثل الســـائر فـــي أدب الكاتب والشاعر ــ لضياء الدين بن الأثير ــ قدمه وعلق عليه د . أحمد الحـــوفي ، د . بدوي طبانة ــ دار نهضة مصر للطبع والنشر ــ الفجالة ــ القاهرة ٣ / ١١ .

فـيه كالنصـارى والثنوية والتكرير في مثل هذا المقام أبلغُ من الإيجاز ، وأحسنُ وأشد موقعًا } [1] .

وعلـى الرغم أن من أغراض التكرير الأساسية التأكيد إلا أن التكرير أبلـغ منه (لأنه وقع في تكرار التأسيس ؛ وهو أبلغ من التأكيد ، فإن التأكيد يقـرر إرادة معـنى الأول وعدم التجوز ، فلهذا قال الزمخشري في قـوله تعالى : ﴿ كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ﴾ [2] . إن الثانية تأسيس لا تأكـيد ، لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنشاء فقال : وفي " ثمّ " تنبيه على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول) [3] .

ومـنه الـتكرار لتأكيد الذم وبلوغه الغاية في التقبيح والتهكم كما قال تعالى : ﴿ فَـقُتل كيف قَدَّر * ثُم قُتل كيف قَدَّر ﴾ [4]

أي قـاتل الله " الوليد بن المغيرة " على تلك الكلمة الحمقاء التي أجالها فـي نفسـه حيث قال عن القرآن ، إنه سحر وقال عن الرسول ـ صلى الله علـيه وسلم إنه ساحر وفي الآية استهزاء به وتهكم ، حيث قدَّر ما لا يصح تقديـره ولا يسوغ أن يقوله عاقل قال في البحر المحيط : (مشهور في كلام العـرب أنـه يقال : عند استعظام الأمر والتعجب منه ، ومعناه : إنه قد بلغ المبلغ الذي يُحسد عليه ويدعى عليه من حُسّاده ، والاستفهام في " كيف قُدِّر " في معنى : ما أعجب تقديره وما أغربه ، كقولهم : أي رجل زيد ، أي : ما أعظمـه وجـاء الـتكرار بـ " ثمّ " ليدل على أن الثانية أبلغ من الأولى ، للتراخـي الذي بينهما ، كأنه دعى عليه أولاً ، ورُجى أن يقلع عن ما كان يرومه فلم يفعل فدعى عليه ثانيـًا) [5] .

---

(١) نفسه ٣/١٠، ١١

(٢) التكاثر/ ٣ ، ٤ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ٣ / ١١ ، وانظر الكشاف ٤ / ٢٣١ .

(٤) المدثر /١٩ ، ٢٠ .

(٥) البحر المحيط ٨ / ٣٦٦ .

ومــن هنا أسهم في جلاء جمال السياق وإبراز جانب المبالغة : صيغة الفعل " قتل " التي للدعاء والذم ، والاستفهام للتعجب كما قــال الزمخشري : (معــنى قول القائل قتله الله ما أشجعه وأخزاه الله ما شعره الأشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك) (١)

و " ثم " للتراخي في منحه الفرصة للتراجع والإقلاع ، والتكرار لتأكيد التهكم .

ومنه تكرار الأداة " بل " للمبالغة في الاضطراب كما في قوله تعالى :

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ (٢)

فقد تكررت " بل " الدالة على الإضراب لبيان فساد أقوالهم جملةً حتى لا تكاد تدري أي هذه الأقوال تقبلها وأيها تُضربُ عنها ؛ فقد ذكروا ــ قبلُ ــ أنه سحر في قوله تعالى : ﴿ هل هذا إلا بشر'' مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصــرون ﴾ (٣) ثم أضربوا عن نسبة السحر إليه ، وذكروا أن ما يأتي به إنمــا هو أخلاط منامات ثم أضربوا عن هذا أيضًا وقالوا ﴿ بل افــــتراه ﴾ أي اختلقه وليس من عند الله ، ثم أضربوا عن هذا كذلك وقالــوا ﴿ بل هو شاعــــر ﴾ { وهكــذا المبطل لا يثبت على قول بل يبقى متحيرًا } (٤) .

ومــنه تكرار المثل إذ يبلغ المثل الثاني مالا يبلغه المثل الأول كما في ضــرب المــثل للمنافقين في أول سورة البقرة ، إذ ضُرِبَ لهم مثالان في كشف طبيعة النفاق وحالهم العجيبة فيه ، الأول : مُثــّل حالهم بحال من أوقد نارًا يستدفيء بها ويستضيء فما لبثت أن أضاءت حتى انطفأت ، وتركته في ظــلام دامــسٍ وخــوف شديد ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقــد نارًا فلمــا أضاءت ما حــوله ذهب الله بنورهـــم وتركهم فـــي

---

(١) الكشاف ٤ / ١٥٨ .

(٢) الأنبياء / ٥ .

(٣) الأنبياء / ٣ .

(٤) البحر المحيط ٦ / ٢٧٦ .

ظلمات لا يُبصرون ﴾ [١] .

ثم ثنّى تعالى بتمثيل آخر لهم مبالغة في كشفهم وإيضاح حالهم وقد مُثل حالهم بحال قومٍ أصابهم مطر شديد فيه ظلمات ورعد وبرق ، فضلّوا عن الطريق وخافوا الهلاك على أنفسهم ، حتى جعلوا أصابعهم في آذانهم من الصواعق خشية الموت وذلك في قوله تعالى : ﴿ أو كصيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرقُ يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾ [٢]

قال الزمخشري : { " فإن قلت " أي التمثيلين أبلغ " قلت " الثاني لأنه أول على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ولذلك أُخّر وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ } [٣] وهذا يتفق مع ما ترمي إليه المبالغة من الوصول بالمعنى إلى أقصى غاياته .

ومنه تكراره بمرادفه للمبالغة كقوله تعالى : ﴿ عذاب من رجز أليم ﴾ [٤] (والقصد المبالغة ، أي عذاب مضاعف [٥] وبالعطف كقوله تعالى : ﴿ إنّما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ [٦] ، وقوله : ﴿ فاعفوا واصفحوا [٧] ﴾ [٨]

---

(١) البقرة / ١٧ .

(٢) البقرة/ ١٩ ، ٢٠ .

(٣) الكشاف ١ / ٤١ .

(٤) سبأ / ٥ .

(٥) في الكشاف : عن قتادة : الرجز : سوء العذاب انظر الكشاف ٣ / ٢٥١ وقال أبو حيّان : الرجز : العذاب السيء انظر البحر المحيط ٧ / ٢٤٩ .

(٦) يوسف / ٨٦ .

(٧) البقرة / ١٠٩ .

(٨) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٣٤ .

ز- توظيف التقديم [1] للمبالغة :

التقديم : أحد أساليب البلاغة وفنون القول التي تناولها البلاغيون قديمًا وحديثًا [2] حيث يكتسب قدرًا من الخصوصية الجمالية في تحوله من مكانٍ إلى مكان ، وللتقديم الفني فائدتان :

الأولى : ما يفيد زيادة في المعنى مع تحسين في اللفظ ، وذلك هو الغاية القصوى ، وإليه المرجع في فنون البلاغة ، والعمدة في هذا هو القرآن الكريم كما في قوله تعالى : ﴿ وجوه'' يومئذٍ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾ [3]

تجد أن تقديم الجار والمجرور في هذا قد أفاد التخصيص ، وأن النظر لايكون إلا لله ، مع جودة الصياغة وتناسق السجع .

الأخرى : ما يفيد زيادة في المعنى فحسب نحو قوله تعالى : ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ [4] فتقديم المفعول في هذا لتخصيصه بالعبادة دون سواه ، ولو 'أخِّر لم يفد الكلام ذلك [5] .

والنظم القرآني يحمل أسرارًا شتَّى في الدِّقة المختارة للَّفظ من حيث تقدمه أوتأخره ، فتشي العلاقة بين اللفظين ، أو بين الألفاظ بنوعٍ من الدلالات الدقيقة التي تعمل على تحريك الذهن في متابعة أسرار التقدم أو التأخر لتلك المفردات ، ومهما أجاد الأديبُ في سبك نتاجه الأدبي ، فسترى تفاوتًا واضطرابًا ــ أحيانًا ــ لعدم مراعاة تلك الدقة بين المترادفات فيما حقه التقديم ، وفيما حقه التأخير ، لكن الأمر في التنزيل جِدٌّ مختلف ، فإنك واجد'' نسجًا رصينًا ، لا غموض فيه ولا اضطراب ، ولا تنازع فيه

---

(١) اكتفيت بذكر " التقديم " عن " التقديم والتأخير " لأنه إذا 'قدِّم الخبر فُهِم تأخير المبتدأ ، وإذا 'قدِّم المفعول 'فهِم ضمنًا تأخير الفاعل وهكذا إذا 'قدِّم لفظ 'فهِم تبعًا تأخير الآخر .

(٢) انظر مثلاً : البرهان ٣ / ٢٣٣ ، والمثل السائر ٢ / ١٧٢ ، بديع التراكيب / ٤٧١ البلاغة العربية / ٢٣٥ ، البلاغة والأسلوبية / ٣٢٩ ، علوم البلاغة / ١١٩ ، فن البلاغة / ١٠١ ، أثر النحاة في البحث البلاغي / ٨١ ، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث / ١٦٩ .

(٣) القيامة /٢٢ ، ٢٣ .

(٤) الزمر / ٦٦ .

(٥) انظر علوم البلاغة /١١٩ .

ولا اختلاف قال عز من قائل : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (١) .

وثمَّ خيط'' دقيق بين المبالغة بمعنى الزيادة والكثرة وسر التقديم ، حيث يُقدَّم الأزيد والأكثر في الصفة على غيره ، مثل إبداء الحفاوة والتكريم أو الحث والتحضيض ، أو التغليب أو التعجيب أو الميل فيُقدَّم الأزيد في هذه الصفات على غيره تدرُّجًا دقيقًا كما في قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (٢) .

بدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، والميل إليهن أكثر وفي الحديث : " ما تركت بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء " (٣) ثم ثنَّى بالبنين لأنهم ثمرات القلوب وقرة الأعين ، قال الزركشي : (وأخَّر ذكر الذهب والفضة عن النساء والبنين لأنهما أقوى في الشهوة الجبلِّية من المال ، فإن الطبع يحث على بذل المال ، فيحصل النكاح ، والنساء أقعد من الأولاد في الشهوة الجبلِّية ، والبنون أقعد من الأموال ، والذهب أقعد من الفضة ، والفضة أقعد من الأنعام ؛ إذ هي وسيلة إلى تحصيل النِعم) (٤) .

وقال أبو حيَّان : (بدأ في تفضيلها بالأهم فالأهم ، بدأ بالنساء لأنهنَّ حبائل الشيطان وأقرب وأكثر امتزاجًا ... ويقال : فيهن فتنتان : قطع الرحم ، وجمع المال من الحلال والحرام وفي البنين فتنة واحدة وهي جمع المال وثنَّى بالبنين لأنهم من ثمرات النساء وفروع عنهن وشقائق النساء في الفتن " الولدُ مبخلة مجبنة " ... (و) ثلث بالأموال لما في المال من الفتنة ولأنه يحصل به غالب الشهوات ، ولأن المرء يرتكب الأخطار في

---

(١) النساء / ٨٢ .

(٢) النساء / ١٤ .

(٣) أخرجه البخاري .

(٤) البرهان ٣ / ٢٤٨ .

تحصـيله الولـد) [١] وفـي السـياق مبالغات منها : وصف المشتهيات بالشـهوات قال في البحر (وعبَّر عن المشتهيات بالشهوات **مبالغة** إذ جعلها نفـس الأعـيان وتنبـيهًا علىخستها لأن الشهوة مسترذلة عند العقلاء ، يُذم متـبعها .. وناهـيك لهـا ذمًا قوله ـــ صلى الله عليه وسلم : " حُفَّت النار بالشـهوات وحفَّـت الجنة بالمكاره ") [٢] كذلك من المبالغات وصف المال بالقناطـير المقـنطرة قال ابن عاشـور : (القنطار .. **مبالغـة** في مقدار المال) [٣] .

وفـي السياق لفت'' لميزة الإسلام بمراعاته مقتضى الفطرة البشرية ، ومحاولـة تهذيبها ورفعها ، لا كبتها وقمعها ؛ إذ يقوم الشرع على " ضبط " هذه الرغائب واللذائذ ، وهذا " الضبط " وسط بين رذيلتين هما " الكـبت " و " الإباحـية " ، فبإيقاع هذا الضبط على هذه المشتهيات يسمو الإنسان ويعلو علـى البهيمـية كمـا يخلـو في الوقت نفسه من العقد النفسية والنزغـات الشيطانية ، وينجو من الوقوع في مستنقع الرذيلة .

ومـنه المـبالغة في الشرف في الدرجة والفضيلة حيث قُدِّم الأشرف فالأشـرف كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعـَم الله عليهم من **النبيين والصديقين والشهداء والصالحين** وحَسُن أولئك رفيقـًا ﴾ [٤] .

فقـد جـاء هذا التركيب على حسب التنزُّل من الأعلى إلى الأدنى إلى أدنـى مـنه وفي هذا ترغيب للمؤمنين في طاعة الله وطاعة رسوله ، حيث وعدوا بمرافقة أقرب عباد الله إلى الله ، وأرفعهم درجات عنده ، والظاهر أن المؤمنين في هذه الآية قُسموا أربعة أقسام وجُعل لهم أربعة منازل ، بعضها دون بعض الأول : الأنبياء : تمدهم القوة الإلهية والثاني : الصديقون : وهم الذين يزاحمون الأنبياء في المعرفة ، والثالث : الشهداء :

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٤١٤ .

(٢) نفسه ٢ / ٤١٣ .

(٣) التحرير والتنوير مجلد ٣ جزء ٤ / ٢٨٩ .

(٤) النساء / ٦٩ .

وهـم الذيـن يعرفون الشيء بالبراهين ، والرابع : الصالحون : وهم الذين يعرفون الشيء باتباعات وتقليدات الراسخين في العلم [١] .

ومـنه قولـه تعـالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لله وملائكتِهِ ورسلِهِ وَجِبْرِيلَ ومـيكالَ ﴾ [٢] . ، لأن جـبريل صاحب الوحي والعلم ، وميكائيل صاحب الأرزاق ، والخيرات النفسانية أفضل من الخيرات الجسمانية [٣] .

ومـنه قولـه تعـالى : ﴿ وآتى المالَ على حُبِّه ذوي القربى واليتامى والمسـاكين ﴾ [٤] . حيـث قُـدِّم القريبُ ؛ لأن الصدقة عليه أفضل من الأجنبـي وهكذا أدناك أدناك قال ابن جُزيَ : { (ذوي القـُربى) وما بعده ترتيـب بـتقديم الأهم فالأهم ، والأفضل ، لأن الصدقة على القرابة صدقة وصـله بخلاف من بعدهم ثم اليتامى لصغرهم وحاجتهم ثم المساكين للحاجة خاصة ، وابن السبيل : الغريب ، وقيل الضعيف ، والسائلين وإن كانوا غير محتاجين ، وفي الرقاب عتقها } [٥] .

فالحفاوة بذوي القربى ، والمبالغة في معاملتهم ، وتقديمهم على غيرهم مـن أهم الركائز التي حثَّ عليها الشرع ، وقدَّمهم ، لأنهم بعد الوالدين من أسس بناء المجتمع الإسلامي وتقويته ، وقد جاء في الأثر : " أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح " اعتدادًا بأن الأسرة هي النواة الأولى في المجتمع ، وإذا أضفنا إلى ذوي القـُربى الاعتناء من بعدهم باليتامى والمساكين فقد تم التضـامن والتكافل في محيطٍ أوسع ، ومنه أخذ الغربيون يتشدقون بحقوق الطفـل ، وحقوق الإنسان وحق المرأة حتى أضحت في زمننا هذا شعارات جوفاء للترويج لمدنيتهم الزائفة ، فهم في العراق وأفغانستان يقتلون الأطفـال والنسـاء والرجـال ويعذبونهم فأين هي الحقوق ؟ ! ويبقى وسط هذا الزخم الفاسد صفاء القرآن ونقاؤه ، ويبقى كمال الإسلام وسبقه وخلوده .

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٤١٤ .

(٢) البقرة / ٩٨ .

(٣) انظر البرهان ٣ / ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٤) البقرة / ١٧٧ .

(٥) التسهيل ١ / ٦٩ .

ومنه توظيف التقديم لبيان الكثرة المتوقعة :

نحو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (١)

قُدِّم الظالم لكثرته ، ثم المقتصد ثم السابق . قال الزمخشري : (فإن قلت) لِمَ قُدِّم الظالم ثم المقتصد ثم السابق (قلت) للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقين أقل من القليل) (٢)

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ (٣)

وقوله : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ (٤)

وجعل منه الزمخشري : ﴿ فمنكم كافر " ومنكم مؤمن ﴾ (٥) يعني بدليل قوله : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ (٦) وحديث بعث النار (٧).

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ (٨).

---

(١) فاطر/ ٣٢ ، قال عمر وابن مسعود وابن عباس وكعب وعائشة وأكثر المفسرين هذه الأصناف الثلاثة في أمة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ، فالظالم لنفسه : العاصي ، والسابق : التقي ، والمقتصد: بينهما وقال الحسن : السابق من رجحت حسناته على سيئاته ، والظالم لنفسه من رجحت سيئاته والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته وجميعهم يدخلون الجنة وروي أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم قال : سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له . انظر التسهيل ٣ / ١٥٨ .

(٢) الكشاف ٣ / ٢٧٦ ، ولابن "جزي رأي" آخر في سر التقديم حيث قال : (فإن قيل : لِمَ قدّم الظالم ووسّط المقتصد ، وأخّر السابق ؟ فالجواب : أنه قدّم الظالم لنفسه رفقاً به لئلا ييئس (هكذا وردت والصحيح ييأس) وأخّر السابق لئلا يعجب بنفسه) التسهيل ٣ / ١٥٨ .

(٣) هود / ١٠٥ .

(٤) آل عمران/١٥٢ .

(٥) التغابن / ٢ .

(٦) يوسف /١٠٣ .

(٧) انظر البرهان ٣ / ٢٦٠ .

(٨) المائدة / ٣٨ .

لأن السـرقة في الذكور أكثر وقوله : ﴿ الزَّانيةُ والزَّاني فاجلِدوا كُلَّ واحدٍ منهما مِائة جلـْدة ﴾ (١) قُدِّم في الزنا المرأة لأنه فيهنَّ أكثر (٢).

ومنه ما وُظِّف للحث عليه خيفة التهاون به نحـو قـولـه تعـالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إناثًا وَيَهَبُ لمن يشاءُ الذكورَ * أوْيُزوِّجهم ذكرانًا وإناثًا وَيَجْعل من يَشاءُ عَقِيمًا إنه عليمٌ قديرٌ ﴾ (٣)

حيث قُدِّم الإناث حثًـا على الإحسان إليهن ، ومبالغةً في إكرامهن ، ورعايـةً لظروفهن قال ابن جُزي : { قُدِّم الإناث اعتناءً بهن وتأنيسًا لمن وهبهـن له } (٤) وأضـاف الزمخشري في عِلة تقديم الإناث قوله : { لأن سياق الكـلام أنـه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتـي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم والأهم واجب التقديم } (٥) وهذا مـثل بيِّـن لحفـظ الإسلام حق المرأة وحمايتها ، وليس كما يتصور بعض الحاقديـن علـى الإسلام أنه لم يعطها حقها ولم يوفر لها حمايتها ألا ساء ما يحكمون !

ومنه قوله تعالى : ﴿ مِنْ بعْد وصيةٍ يُوصَي بها أو دَيْن ﴾ (٦)

فإن وفاء الدَّيْن سابق على الوصية ، لكن قُدِّمت الوصية ، لأنهم كانوا يتسـاهلون بتأخـيرها ، بخـلاف الدَّيْن (٧) قال ابن جُزي : { وإنما قدمت الوصـية على الدَّيْن ، والدَّيْن مقدم عليها في الشريعة : اهتمامًا بها ، وتأكيدًا للأمر بها ، ولئلا يتهاون بها وأُخِّر الدَّيْن ؛ لأن صاحبه يتقاضاه فلا يحـتاج

(١) النور/ ٢ .

(٢) انظـر البرهان ٣ / ٢٦٠ ، يبرر ابن جُزي نسبة الزنا إلى المرأة وتقدمها في ذلك على الرجل لأنه كان منهن إماء وبغايا يجاهرون بذلك . انظر التسهيل ٣ / ٥٨ ولست أرى هذا الرأي لعموم اللفظ ولأن الغالب أن الفاحشة لا تحدث إلا بتزيينها وموافقتها إذ من السهولة أن توقع الرجل ــ إن شاءت ــ وليس العكس قال أبو حيان : (قُدِّمت " الزانية " على " الزاني " لأن داعيتها أقوى ، لقوة شهوتها ، ونقصان عقلها ، ولأن زناها أفحش وأكثر عارًا) البحر المحيط ٦ / ٣٩٣ ومن هنا أمر الشرع بتسترها .

(٣) الشورى/ ٤٩ ، ٥٠

(٤) التسهيل ٤ / ٢٤ .

(٥) الكشاف ٣ / ٤٠٨ .

(٦) النساء/ ١١ .

(٧) انظر البرهان ٣ / ٢٦٥ .

إلى تأكيد في الأمر بإخراجه } [١].

ح – توظيف التفضيل للمبالغة :

اسم التفضيل : هو اسم مشتق مصوغ من الفعل للدلالة على أن شيئين اشتركا في صفة واحدة ، وزاد أحدهما على الآخر في هذه الصفة نحو : محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أفضل الأنبياء ، وعمر أعدل الخلفاء وعثمان أشد الصحابة حياءً [٢].

له وزن واحد قياسيّ يأتي عليه هو : " أفعل " نحو : أعظم ، وأرحم ، وخرج عن هذا الوزن ثلاثة ألفاظ وردت بغير همزة هي " خير ، شر ، حَبَّ .

وسرُّ تقارب التفضيل من المبالغة هو الزيادة في كُلٍ ، فإنك واجد'' شبَهًا بين قولك : محمد مِكرام ، و محمد أكرم من علي ، و محمد هو الأكرم . فالجملة الأولى المقترنة بصيغة التفضيل تشي بالكثرة من الكرم والجملة الثانية الدلالة فيها مقترنة بمدى كرم عليّ ، إذ كلما زاد كرمه ازداد كرم محمد بالتبعية لأنه هو المفضل ، بَيْد أنك واجد'' الأسلوب الثالث قد بلغ الغاية ، إذ ُوصِف محمد بوصوله أعلى الكرم .

وإذا أضيف أفعل التفضيل إلى جنسٍ لم يكن بعضه ، ولا واحدًا من آحاده نحو : زيد أشجع الأسود ، وأجود السحب ، فيصير المعنى زيد أشجع من الأسود ، وأجود من السحب ، وعليه قوله تعالى :

﴿ خَيْرُ الرازقين﴾ [٣] و ﴿ أَحْكم الحاكمين﴾ [٤] و ﴿ أَحْسن الخالقين ﴾ [٥]

---

(١) التسهيل ١ / ١٣٢ .

(٢) قد يأتي التفضيل في صفتين متضادتين نحو: الشتاء أبرد من الصيف . وليس المراد هنا أن الشتاء والصيف اشتركا في صفة البرد ، والشتاء يفضله فيها . وإنما المراد أن برد الشتاء أشد من حر الصيف كذلك لا يصاغ التعجب والتفضيل إلا مما يقبل الزيادة والنقص ، فلا ُيقال : زيد'' أموت الناس . انظر دراسات لأسلوب القرآن ٧ / ١١٦ ولاسم التفضيل شرائط انظرها مبسوطة في كتب النحو .

(٣) الجمعة/ ١١ .

(٤) هود/ ٤٥ .

(٥) المؤمنون/ ١٤ .

أي خير من كل من تسمَّى برازق ، وأحكم من كل من تسمىً بحاكم وأحسن من كل من اتَّصف بخالق [١] .

ومن توظيف التفضيل للمبالغة قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [٢] أي إذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيتم منها فأكثروا ذكره **وبالغوا** في ذلك كما كنتم تذكرون آباءكم وتعدون مفاخرهم بل أشد [٣] وهذا يتفق مع قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا ﴾ [٤] .

وكأن المبتغى من الإنسان أن يبتهل بذكر الله ، وأن يلهج به كما يلهج بذكر أبيه ؛ بل ينشد في هذا الذكر الغاية ، ويرمي من ورائه بلوغ المنتهى الذي يفوق ذكر الآباء ومفاخرهم ؛ إذ فخر المرء في الإسلام يتبلور في مدى ذكره الدائم لله ، واعتزازه المستمر بدينه ، لا بذكر الآباء الذين كانوا فخر الماضي ، وفخر ما سلف من أيامهم لأن ذكر الله أضحى في ظل الإسلام فخر الماضي والحاضر والمستقبل .

ومنه المبالغة في القسوة كما في قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [٥] .

في هذا السياق تؤدي " أو " دورًا بارزًا في توجيه الدلالة على حسب المعنى فإذا كانت بمعنى " بل " يكون المعنى عند ذلك : بل قلوبهم أشد قسوة من الحجارة ، وهذا لفرط القسوة ، وطغيانها في قلوبهم [٦] .

وقال بعضهم هي للترديد أو التخيير أي قست قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة من الحجارة ، أو هي للتنويع بمعنى بعض قلوبهم كالحجارة و بعضهم

---

(١) انظر البرهان ٤ / ١٦٨ .

(٢) البقرة / ٢٠٠ .

(٣) انظر الكشاف ١ / ١٢٤ / ١٢٥ .

(٤) الأحزاب/ ٤١ .

(٥) البقرة / ٧٤ .

(٦) انظر التسهيل ١ / ٥١ .

وصلت بهم القسوة شدتها فهي أقسى من الحجارة ، واستحسن أبو حيّان التوجه الأخير [١] .

هذا السياق جاء بعد مشهد مُؤثر ، ومثير لكل عوامل الخشية والتقوى وهو انبعاث الميت إنسانًا حيًّا ناطقًا على إثر ضربة من بعض جسد البقرة المذبوحة ، ليس فيها من حياة ، ثم يعود هذا الميت بعد شهادته فيمن قَتَل " قتيل بني إسرائيل " المسئول عنه نبي الله موسى ــ عليه السلام ــ يعود إلى عهده الأول . إنها آية تستجيش في قلوب بني إسرائيل معاني الإيمان ، والإخبات والتصديق التام .. لكن يا للأسف إما ازدادت قلوبهم بعد هذا المشهد إلا قسوة وما اكتسبت إلا جدبًا وبُعدًا وجاءت المبالغة في القسوة لتؤصل هذا الجفاء ، إنه تاريخ مديد'' حافل'' بدلائل الكفر والتكذيب والالتواء .

وشبيه'' بهذا في موضع " أو " قوله تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كُتب عليهمُ القتال إذا فريق'' منهم يخشون الناس كخشية الله **أو أشد خشية** ﴾ [٢] .

أي ألا تعجب يا محمد من أناس طلبوا القتال وهم بمكة فقيل لهم ساعتها أمسكوا عن قتال الكفار فلم أُومر بقتال ، فلما فرض عليهم قتال المشركين إذا جماعة منهم يخافون ويجبنون ويفزعون من الموت كخشيتهم من عذاب الله أو أشد خشية ، وهنا تؤدي " أو " دورها الثلاثي كما في المثال السابق ، إما للتخيير أو بمعنى " بل" ، أو للتنويع يعني أن منهم من يخشى الناس كخشية الله ، ومنهم من يخشاهم خشية تزيد على خشيتهم الله [٣] .

وقال الزمخشري معنى : " يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية " أي مثل أهل خشية الله أو أشد خشية من اهل خشية الله وكأنه اختار

---

(١) انظر البحر المحيط ١ / ٤٢٨ .

(٢) النساء/ ٧٧ .

(٣) انظر البحر المحيط ٣ / ٣١٠ .

دلالة التخيير [١].

ومهما يكن من أمرفقد بلغ خوف هؤلاء [٢] مبلغًا عظيمًا للدرجة التي أضحى خوفهم فيها أشد من خوف الله وفي هذا مبالغة ناطقة بمدى الخوف والفزع اللذيْن وصلوا إليهما ، ومدى الجزع والانهيار اللَّذيْن مُنُوا بهما .

ومنه المبالغة في حرص اليهود على الحياة ــ أي حياة !!

كما قال عز من قائل : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهم أحرصَ النَّاس على حَيَاةٍ ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يُعمرَّ ألفَ سنةٍ وما هو بمُزحزحِه من العذاب أن يُعمرَّ والله بصير'' بما يعملونَ ﴾ [٣].

حيث يحمل السياق التأكيد على حرص اليهود على الحياة وهم في ذلك أحرص من المشركين أنفسهم قال الزمخشري : { " فإن قلت " ألم يدخل الذي أشركوا تحت الناس (قلت) بلى ولكنهم أفردوا بالذكر ؛ لأن حرصهم شديد ويجوز أن يراد وأحرص من الذين أشركوا فحُذف لدلالة أحرص الناس عليه وفيه توبيخ عظيم ، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا فحرصهم عليهم لا يستبعد لأنها جنتهم فإذا زاد عليهم من الحرص من له كتاب ، وهو مُقرٌ بالجزاء كان حقيقًا بأعظم التوبيخ } [٤].

قال أبو حيان : (أتى بصيغة أفعل من الحرص مبالغة في شدة طلبهم

---

(١) انظر الكشاف ١ / ٢٨٢ ، والبرهان ٤ / ١٦٩ .

(٢) رجّح ابن كثير والزمخشري أنهم جماعة من المؤمنين ، واختار القرطبي وابن جُزي وأبو حيّان أنهم جماعة من المنافقين ، قال أبو حيّان " الظاهر أن القائلين هذا هم منافقون ، لأن الله تعالى إذا أمر بشيء لا يسأل عن علته من هو خالص الإيمان ؛ ولهذا جاء السياق بعده : " وإن تصبهم حسنة'' يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك " النساء/ ٧٨ وهذا لايصدر إلا من منافق " البحر المحيط ٣ / ٣١٠ وهذا الرأي الأخير هو الذي أميل إليه ؛ لأن المؤمنين مهما بلغت درجة خوفهم لا يخشون الناس أكثر من خشية الله ، فهاهم في غزوة الأحزاب وقد بلغت قلوبهم الحناجر وزاغت أبصارهم قال الله عز وجل عنهم " ولما رأي المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا ايمانًا وتسليمًا " الأحزاب/ ٢٢ .

(٣) البقرة / ٩٦ .

(٤) الكشاف ١ / ٨٣ .

للبقاء ودوام الحياة) (١) .

ودليل هذه المبالغة قوله تعالى في السياق نفسه : ﴿ يود أحدهم لو يُعمرُ ألف سنة ﴾ إذ يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة فهم (لشدة حرصهم في ازدياد الحياة ، يتعلق تمنيهم في ذلك بما لا يمكن وقوعه عادة) (٢) وانظر إلى المبالغة في الحرص على الحياة أورثهم الطمع البالغ في الدنيا بأي ثمن ، يريد أن يعيش أي حياة !! وإن كانت سويعاتٍ وأنيفاسًا ، واللافت في لفظة " سنة " أنها تدل على الجدب والشدة (٣) وهذا يعني أن دلالة " سنة " تتسجم مع دلالة " أحرص الناس على حياة " فهو يود أن يعيش حياةً مديدةً وإن كانت كلها شقاء وكد ومعاناة ، فلو جاء النظم " ألف عام " لكانت حياته قائمة على الانتقاء والاختيار لدلالة " عام " على النماء والخصب (٤) ولكن للأسف يود أن يعيش في أي مستوى حياتي وتحت أي ظرف معيشيّ ، وهذا يُفسِّر لنا سر تمسكهم بأرض فلسطين وادعائهم كذبًا أنها أرضهم وإن كانت تلك الحياة ممزوجة بالخوف والفزع والتشريد والدماء .

ومنه المبالغة في التكريم وحسن الجزاء كما في قوله تعالى :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ (٥) .

أي للذين أحسنوا من المؤمنين الحُسنى أي الجنة و " زيادة " وقد اختلف المفسرون في تفسيرهم المقصود من هذه الزيادة علىخمسة أقوال :

١- الحسنى : الحسنة ، والزيادة عشرة أمثالها .

٢- عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٨٠ .

(٢) نفسه ٤٨٢/١.

(٣) قال الراغب الأصفهاني : { أكثر ما تستعمل السَّنةُ في الحَوْل الذي يه الجَدْبُ يقال : أسْنَتَ القومُ : أصابتهم السَّنةُ } المفردات / ٤٣٠ .

(٤) قال الراغب : { العام كالسنة ، لكن كثيرًا ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الشدة أو الجَدْب . ولهذا يُعبَّر عن الجَدْب بالسنة ، والعام بما فيه الرخاء والخِصْب } المفردات / ٥٩٨ .

(٥) يونس / ٢٦ .

٣- مغفرة من الله ورضوان .

٤- أن تمر السحابة بأهل الجنة ، فتقول : ما تريدون أن أمطركم فلا يريدون شيئـًا إلا أمطرتهم .

٥- وهـو الـراجح : الـنظر إلى وجه الله تعالى ، قال بهذا أبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب في رواية ، وحذيفة ، وعبادة بن الصامت ، وكعب بن عجرة ، وأبو موسى ، وصهيب، وابن عباس في رواية وهو قول جماعة من التابعين ، وحديث الرؤية في مسلم والنسائي [١] .

وتمثلـت المـبالغة في لفظي : " الحُسنى " و " زيادة " ، الحسنى هي الجـنة وكما جاء في الحديث : " ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله هي الجنة " .

وجـاء فـي فضلها " أعددت لعبادي الصالحين مالا عين'' رأت ولا ُأذن'' سـمعت ولا خطـر على قلب بشر " ثم يأتي الجزاء الأوفى ، والمنَّة الكبرى ، والتجلي الأعظم وهو النظر إلى وجه الله الكريم ن فأي جزاء أوفى من هذا نسأله سبحانه لذة النظر إلى وجهه الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة ٍ ُمضِلَّة .

وَبيِّن'' بعد هذه الإطلالة أن هذه الأساليب كانت ثرية بالنكات الجمالية واللفـتات الفنـية ، بحيث يُصبح من العسير ؛ بل من المحال أن نسارع إلى رفض هذه الأساليب الإنشائية " غير الطلبية " جملة بحجة أن الجمال منوط'' فقط بالأساليب الإنشائية " الطلبية .

ولسـت أزعم بعد هذا أني رصدت كل جماليات هذه الأساليب لا سيما مـا يتسـم بالمبالغة ، بل هذا الذي قدمت لا يعدو أن يكون نتفـًا دالة على صـحة مـا ملـت إليه من عدم التسرع في رفض أي أسلوب مسبقـًا قبل الدراسـة البلاغـية الفاحصـة والمـتأملة فما اتفق والذوق الفني ُقبل ، وما تعارض مع الذوق ، واقتقد الجودة ، واختل معياره البلاغي رُفض .

---

(١) انظر البحر المحيط ٥ / ١٤٩ ، وانظر التسهيل ٢ / ٩٢ .

أما القرآن فقد ارتقى بكل أساليبه إلى الدرجة العليا ، والمنزلة الحُسنى حتى ليُصيبُ الدارس بالحيرة والدهشة في أيّها يختار ، وأيها ينتقي ، فبحره زاخر ، وفيضه سابغ ، وعطاؤه ممدود درّار .

(٣) الأساليب الخبرية

الأساليب الخبرية : تدرس في علم النحو على أساس أنها جزء أصيل في بناء الجملة ، لتتم عن طريقها الفائدة التقريرية ، وتخضع لقواعد الإعراب ، ولمقتضى التشكيل البنائي للتركيب اللغوي إفرادًا ، وتثنيةً ، وجمعًا ، وتذكيرًا وتأنيثًا ..الخ بينما تدرس في منظور البلاغة العربية من حيث معناها وقبولها للصدق والكذب ؛ هذا مع ضرورة التنبيه إلى أن التركيب الخبري الفني لا حاجة له إلى أن يطابق الواقع المعيشي ؛ لأن له واقعًا خاصًا به ؛ هو واقع العمل الفني نفسه ، المُستقى من التجربة الفنية التي يخوضها المبدع [١] حيث يُعني بكشف المعاني الفنية التي تتجاوز المعاني الأصلية الوضعية إلى آفاق أوسع من التعبير الأدبي الرفيع .

ومعنى هذا أن البلاغي لا يقف كثيرًا عند حدود الدلالة الوضعية للكلمة ، وإنما يبحث ببصيرته الواعية عما وراء الدلالة الوضعية من دلالات فنية يكشفها السياق اللغوي ، وتشير إليها القرائن التي يفهمها المتلقي الفطن بدربته في تذوق النصوص وقدرته على قراءة ما بين السطور من إيحاءات يشع بها النص الأدبي [٢] .

وورد في القرآن الكريم أسلوبان من الأساليب الخبرية وُظّفا للمبالغة هما :

١- أسلوب النفي .

٢- أسلوب التوكيد .

---

(١) انظر بديع التراكيب د . منير سلطان /١٩٣ .

(٢) انظر دراسات في المعاني والبديع د . عثمان عبد الفتاح / ٤٣ .

أولاً : توظيف النفي للمبالغة :

مـــن أقسام الخبر النفي ، بل هو شطر الكلام كله ، والفرق بينه وبين الجَحْـد ، أن النافي إن كان صادقـًا سُمِّي كلامه نفيًا ، ولا يُسمَّى جَحْدًا ، وإن كـــان كاذبًـــا سُمِّي جَحْدًا ونفيًا أيضًا ، فكل جَحْد نفي ، وليس كل نفي جَحْدًا ، مثال النفي : ﴿ مَا كَانَ مُحمدٌ أبا أحدٍ من رِجَالِكم ﴾ (١) .

ومـــثال الجَحْـد نفي فرعون وقومه آيات موسى ، قال تعالى : ﴿ فلما جـــاءتهم آياتـــنا مُبصرة قالوا هذا سحر'' مُبين * وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ (٢) .

وأدوات النفي هي : لا ، ولات ، وليس ، وما ، وإن ، ولم ، ولما (٣) .

ومن النفي الذي وُظِّف للمبالغة قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيهِمُ السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنْظرين ﴾ (٤) .

إذ مـــا حـــزن علـــى فقد فرعون وقومه بغرقهم أحد ، ولا تأثر بموتهـــم كائـــن'' من الخلق ، وإذا رجعنا إلى شأن العرب في تعابيرهم عن موت عظمائهم نجد عبارات مثل : هذا بكت عليه السماء والأرض .. وبكته الريح .. وذاك أظلمت له الشمس .. الخ (٥) ، ولما كان قوم فرعون هؤلاء كفـــرة مكذبيـــن فقـــد ماتوا ميتة مهينة .. غرقى بِعُدَّتهم وعَتادهم ، دون أن يكـــترث بهـــم أحـــد ، فجاء التعبير القرآني الخالد ﴿ فَمَا بَكَت عليهم السماءُ والأرضُ ﴾ دلالة على مدى تحقيرهم ، والزراية بهم المتمثل في عدم شعور أي مخلوق بهم .

بَـيْد أن المفســـــــرين لم يقفوا عند هذا الوجـــــه فقط ، فهنـــــاك وجهان آخـــران في الآية كما ذكـــــر ابن جُـــــزيّ الكلبي تعليقـًا علـــى

---

(١) الأحزاب / ٤٠ .

(٢) النمل/ ١٣ ، ١٤ .

(٣) انظر الإتقان ٣ / ٢٢٩ ، وانظر البرهان ٢ / ٣٧٥ وما بعدها .

(٤) الدخان / ٢٩ .

(٥) انظر الكشاف ٣ / ٤٣٢ .

الآيــة : { فــيه ثلاثة أقوال : الأول : إنه عبارة عن تحقيرهم وذلك أنه إذا مات رجل'' خطير قالت العرب في تعظيمه بكت عليه السماء والأرض على وجه **المجاز والمبالغة** ، فالمعنى أن هؤلاء ليسوا كذلك ؛ لأنهم أحقر من أن يبالــي بهــم ، الثانــي : قيل إذا مات المؤمن بكى عليه من الأرض موضع عــبادته ومــن السماء موضع صعود عمله ، فالمعنى أن هؤلاء ليسوا كذلك لأنهــم كفــار ، أو ليس لهم عمل صالح . الثالث : أن المعنى ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض ، والأول : **أفصح وهو منزع معروف في كلام العرب** } (١) .

وقــوله : " الأول أفصــح " يعني : " الوجه المجازي " وجه المبالغة وقــوله : " وهو منزع'' معروف'' في كلام العرب " لمس'' منه لفنية اللغة وســعة عطائهــا ، والعرب تستخدم بكاء الطبيعة ونوحها للدلالة على حجم الخســارة ، وعظم الفوْت ، كما يستخدم بُكاء السماء على وجه الخصوص مــن جهــة أخــرى دلالــة على الإمطار كما في قولهم : " إذا بكت السماء ضحكت الأرض " وهم يعنون بالأولى : الإمطار ، وبالثانية : الإنبات .

وعلــى أيــة حــال فقــد دلَّ نفي بكاء السماء عليهم على المبالغة في تحقيرهم وَنكِرَتِهم وجهالتهم في خلق الله ، فما اكترث بموتهم أحد ، ولا شعر بفقدهــم مخلوق ، ولكي يَبين لك هذا قارن ذاك التحقير بتلك المبالغة الواردة فــي الســيرة في إكرامَ الصحابي الجليل سعد بن معاذ الذي اهتز له عرش الرحمن استبشارًا بمقدم روحــه ، واحتفاءً بقدمه الراسخة في الإيمان .

ومنه المبالغة في التكذيب كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ من يقولُ آمنَّا بالله وباليومِ الآخرِ **وما هم بمؤمنين** ﴾ (٢) .

أصل التركيب أن يجيء " وما آمنوا " ليطابق قوله ﴿ مَن يقولُ آمنَّا ﴾ ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم لإخراج ذواتهم من عداد المؤمنين **مبالغــة**

---

(١) التســهيل لابــن جزي الكلبي ٤ / ٣٦ ، وانظر الكشاف ٤ / ٢٣ ، ٢٤ والبيضاوي ٢ / ٤٢٤ ، وأبا الســعود ٨ / ١٣٢ ، وتــأويل مُشــكِل القرآن / ١١٢ والقرطبي ٩ / ٦١٨٩ ــ ٦١٩١ ، والبحر المحيط ٨ / ٣٦ .

(٢) البقرة / ٨ .

أكدت بحرف الجر الزائد " الباء " للدلالة على نفي الإيمان عنهم مطلقـًا ، إذ لـم يتصفوا بالإيمان في حالٍ من الأحوال ، لا في الماضي ، ولا في الحال ولا في الاستقبال (١) .

ومنه المبالغة في نفي البشري كما في قوله تعالى :

﴿ لا بُشرى يَوْمَئذٍ لِلْمُجْرِمين ﴾ (٢) .

المعنى : لا يُبشَّر يومئذٍ المجرمون ، وإنما عدل عنه للمبالغة قال أبو السـعود : { والعـدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشري ، وفقدانها مُشـعرًا بأن هناك بُشْرى يمنعونها أو يفقدونها ، وأين هذا من نفيها بالكلية وحيـث كـان نفيها كناية عن إثبات ضدها كما ان نفي المحبة في مثل قوله تعالى : ﴿ والله لا يحب الكافرين ﴾ كناية عن البغض والمقت دلَّ على ثبوت المنذر لهم على أبلغ وجه وآكده } (٣) .

ومـنه المـبالغة فـي النفي لأحقية المُثْبَت كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلوهم وَلَكِنَّ الله قَتَلَهم وما رميتَ إذ رميتَ ولكنَّ الله رمى ﴾ (٤) .

أي فلـم تقتلوهم أيها المسلمون ببدر بقوتكم وقدرتكم ، ولكن الله قتلهم بنصـركم علـيهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ، وما رميت في الحقيقة أنت يا محمـد أعيـن القوم بقبضةٍ من ترابٍ ، لأن كفـًا من تراب لا يملأ عيون الجيش العَرَمْرَم قال الزمخشري : { إن افتخرتم بقتلـهم فأنتم لم تقتلـوهم ﴿ ولكـن الله قـتلهم ﴾ لأنه هو الذي أنزل الملائكة وألقى الرعب في قلوبهم وشاء النصر والظفـر ، قوَّى قلوبكـم وأذهب عنها الفـزع والجـزع ﴿ وما رميت ﴾ أنت يا محمد ﴿ إذ رَمَيْتَ ولكنَّ اللهَ رَمَى ﴾ يعني أن الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر ولكنها رميـة الله حيث أثَّرت ذلك الأثر العظيم فأثبت

---

(١) انظـر الإيضاح / ١٣٣ ، والصاوي على الجلالين ١ / ١٠ ، والبيضاوي ١ / ٢٥ ، وأبا السـعود ١/ ٤٠ .

(٢) الفرقان/٢٢ .

(٣) أبو السعود ٦ / ٢١١ .

(٤) الأنفال / ١٧ .

الرمية لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأن صورتها وجدت منه ونفاها عنه ؛ لأن أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل الله عز وجل ، فكان الله هو فاعل الرمــية على الحقيقة وكأنها لم توجد من الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ أصلاً } (١) .

واللافــت فــي الــنظم القرآني ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ نفي الرمي وإثباته لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في سياق واحد لبيان قدرة الله وأنــه ســبحانه فعّال لما يريد ، فهو المعين على هذا الرمي الظاهري وهو المسدِّد له في أعين المشركين على كثرتهم على سبيل الحقيقة .

ومــنه نفي الشيء مقيدًا والمراد نفيه مطلقــًا قال الزركشي : { وهذا من أساليب العرب يقصدون به **المبالغة** في النفي وتأكيده ، كقولهم : فلان لا يُرجى خــيره ، ليس المراد أن فيه خيرًا لا يُرجــى ، غرضــهم أنه لا خير فيه على وجــه من الوجــوه . ومنه : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بغير حــق ﴾ آل عمران (٢١) } (٢) .

فالقــيد في قوله تعالى : ﴿ بغير حق ﴾ جاء لبيان تأكيد الاعتداء وعدم أحقــية القتل ؛ إذ لا يقع قتل نبي إلا بغير حق قال أبو حيّان : { لم يرد هذا على أن قتل النبيين ينقسم إلى قتل بحق وقتل بغير حق بل ما وقع من قتلهم إنمــا وقع بغير حق ؛ لأن النبي معصوم من أن يأتي أمرًا يستحق عليه فيه القــتل وإنمــا الحق عندهم : أي لم يدّعوا في قتلهم وجهًا يستحقون به القتل عــندهم ، وقيل جاء ذلك على سبيل التأكيد كقوله ﴿ ولكن تعمي القلوب التي فــي الصدور ﴾ الحج ٤٦ إذ لا يقع قتل نبي إلا بغير الحق ولم يأت نبي قط بما يوجب قتله وإنما قتل منهم من قتل كراهة له وزيادة في منزلته } (٣) .

ومــثله قولــه تعــالى : ﴿ لَا يَسْــأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًــا ﴾ (٤) . قــال الزركشي : (فإنَّ ظاهرة نفي الإلحاف في المسألة ، والحقيقة نفي المســألة

---

(١) الكشاف ٢ / ١١٩ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٣٩٦ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٣٩٩ .

(٤) البقرة / ٢٧٣ .

البِـتَةِ وعلــيه أكثر المفسرين ، وبدليل قوله : ﴿ يَحْسَبُهم الجاهلُ أغنياءَ من الــتعففِ ﴾ (١) . ومــن لا يسأل لا يلحف قطعـــًا ؛ ضرورة أن نفي الأعم يستلزم نفي الأخصّ) (٢) .

فالنفي في السياق ليس منصبـًا على القيد " إلحافـًا " ؛ بل منصب'' على قضية المسألة برمتها مبالغــة في تأكيد النفــي قــال ابن عبـــاس : (لا يَسْــألون إلحافـًا ولا غير إلحاف) (٣) ودليل النفي المطلق قوله تعالى في الآية نفسها : ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ قال الزمخشري : " من صفرة الوجه ورثاثة الحال " (٤) ولاشك أن قومًا هذا حالهم يعكس تركهم للسؤال جملة ، وإلا لتغير حالهم وتحسنت هيئاتهم .

ومــنه المــبالغة في عدم التبصُّر والتعقل بنفي الرؤيــة كما في قوله تعــالى : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهُدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يُبصرون ﴾ (٥) .

قــال الزركشـــي : { أي تحســبهم يــنظرون إليك ؛ لأن لهم أعينــًا مصــنوعة بأجفانهـــا وسوادها يحسب الإنسان أنها تنظر إليه بإقبالها عليه ، وليســت تبصـــر شيئــًا } (٦) ، وقال ابن جزي : { " وَتَرَاهُم يَنْظُرون إليك وَهُــم لا يُبْصِــرون " إن كـــان هذا من وصف الأصنام ، فقوله ينظـــرون مجـــاز ، وقوله لا يبصرون حقيقة ، لأن لهم صورة الأعين وهم لا يرون بها شيئـــًا ، وإن كان من وصف الكفار فينظرون حقيقة ولا يبصرون مجازًا على وجه المبالغة كما وصفهم بأنهم لا يسمعون } (٧) .

وهذا القول الثاني لابن جزي أقرب لسياق الآيات بدليل قوله قبــلُ :

---

(١) البقرة / ٢٦٣ .
(٢) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٣٩٧ .
(٣) البحر المحيط ٢ / ٣٤٣ .
(٤) الكشاف ١ / ١٦٤ .
(٥) الأعراف / ١٩٨ .
(٦) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٣٩٥ .
(٧) التسهيل ٢ / ٥٨ .

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب'' لا يفقهون بها ولهم أعين'' لا يُبصرون بها ولهم آذان'' لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هـم أضـل أولئك هم الغافلون ﴾ (١) . ، إذ ليس المعنى نفي السمع والبصر جملة ، فقد كانوا ذوي سمع وبصر ، وإنما المعنى نفيهما عما ينفع في الدين ، فهـم لمَّـا تركوا الانتفاع بهما ، وأبطلوا الإفادة منهما ، كأنهم فقدوهما بالكلية ، فجاء النفي المطلق مبالغة في تأكيده .

ثانيـًا : توظيف التوكيد للمبالغة :

التوكـيد : تمكيـن الشيء في النفس وتقويته ، لإزالة الشكوك وإماطة الشـبهات عمـا أنت بصدد الإخبار عنه ، وتؤكد الجمل الاسمية بأن أو بأن واللام أو بـأن واللام والقسم وتؤكد الجمل الفعلية بقد أو بقد والقسم ويُعدُّ القصـرُ بابًا من أبواب التوكيد ومن أدواته : إنما والنفي والاستثناء والعطف بـ (بل ، لا ، لكن) (١) ومنه التوكيد اللفظي والمعنوي .

وثَـمَّ ارتباط بين التوكيد والمبالغة ، ففي قولك : ما محمد إلا كاتب ، يقوم القصر على إلغاء مجموع الصفات الكائنة لمحمد ، ولا يستبقي إلا صفة الكـتابة وكأنها الصفة الوحيدة لمحمد ، وهذا الإلغاء يعتمد على حركة ذهنية قائمـة علـى : { الادِّعاء ــ أو المبالغة } ؛ لأن الواقع التنفيذي لا يقبل هذا الحكـم الذي أنتجته الصياغـة ، وهو كون محمد لا صفـة له إلا الكتابة فقط (٢) .

ومما وظِّف فيه للمبالغة قوله تعالى :

﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ ﴾ (٣) .

وشبيه بهذا الموضع قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ (٤)

---

(١) انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم ١ / ٢٤٢ ، وعلوم البلاغة / ٦٠ .

(٢) انظر البلاغة العربية / ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٣) البقرة/ ١٧٤ .

(٤) النساء/ ١٠ .

جـــاءت الأولى في سياق الذين يكتمون ما أنزل الله ، وجاءت الأخرى في سياق الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمـــًا ، وكلاهما سياقان للقصر ، وهو علـــى اعتـــبار ما يؤول إليه أكل المال الحرام الذي يُفضي بهم إلى النـــار ، وقوله : ﴿ في بطونهم ﴾ زيادة في تقبيح حالهم وهو إما على سبيل التوكيد إذ معلـــوم أن الأكـــل لا يكـــون إلا في البطن فصار نظير ﴿ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيهِ ﴾ (١) . أو كناية عن ملء البطن ، وعبَّر بالأكل لأنه أعظم منافع ما تصرف فيه الأموال (٢) .

واللافـــت فـــي الســـياقين هو تعدُّد صور المبالغة فيهما : أولاً : في صـــورة التركيـــب القائم في الموضعين على القصر ، ثانيًا : في لفظ الأكل المُعـــبَّر بـــه عـــن الاكتساب . ثالثـــًا : ﴿ في بطونهم ﴾ المشعر بالملء أو التوكيد ، رابعًا : المأكول هو " النار " على سبيل المجاز المرسل فيما يؤول إليه أكل المال الحرام المفضي حتمًا إلى النار ، ففي السياق مبالغة في الزجر عـــن هذين الفعلين القبيحين كتمان الوحي والاشتراء به ثمنـــًا قليلاً ، وأكل مال اليتامى ظلمـــًا .

ومنه ما وُظِّف لإبداء التناهي في إحاطة علم الله كما في قوله تعالى :

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ والأرضِ إلا في كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٣)

أي مـــا مـــن شـــيء في غاية الخفاء إلا وهو من عند الله في كتاب ، والمُظهـــر فـــي السياق لهذا التناهي أمور هي : أولاً : سياق القصر ، فلا تخرج غائبة مهما دقَّت ، وتناهت في الخفاء عن علم الله ، ثانيـــًا : الصيغة : ﴿ غائبة ﴾ فالتاء فيها للمبالغة كالراوية (٤) وهي بهذا تكثف دلالة المبالغة في الخفـــاء وتناهـــي الإحاطـــة ، ثم أخيرًا : حرف الجر الزائد ﴿ من غائبة ﴾ للإشـــارة ــ أيضًـــا ــ إلـــى سعة علم الله ، وإحـــاطته بكل الخفيات مهما صغرت .

---

(١) الأنعام/ ٣٨ .

(٢) انظر البحر المحيط ١ / ٦٦٧ .

(٣) النمل / ٧٥ .

(٤) انظر التسهيل ٣ / ١٠٠ ، البيضاوي ٢ / ١٨٢ ، أبا السعود ٦ / ٢٩٩ ، الكشاف ٣ / ١٥٢ .

ومـــنه مـــا وظّف لتعظيم أمر الكبيرة التي أتى بها إبليس كما في قوله تعالى : ﴿ فَسَجَد الملائكةُ كُلُّهم أجمعون * إلا إبْلِيسَ ﴾ (١) " فإن فيه معنى زائدًا على الاستثناء ، هو تعظيم أمر الكبيرة التي أتى بها إبليس ، من كونه خَرَق إجماع الملائكة ، وفارق جميع الملأ الأعلى بخروجه مما دخلوا فيه من السجود لآدم ، وهو بمثابة قولك : أمر الملك بكذا فأطاع أمره جميعُ الناس ، مـــن أمـــير ووزير إلا فلانًا ، فإن الإخبار عن معصية الملك بهذه الصيغة ، أبلغ من قولك أمر الملك فعصاه فلان " (٢) .

وقـــد حاول المفسرون إظهار دلالة " أجمعون " بعد " كلهم " فقال ابن عطـــية { " وأجمعيـــن " تأكيد وفيه معنى الحال } ولكن عقّب عليه أبو حيان فقـــال : { وهـــذا جنوح لمذهب من يزعم أن أجمعين تدل على اتحاد الوقت والصـــحيح أن مدلوله مدلول كلهم } (٣) وعلى أية حال أيًا كانت النتيجة فلا مناص أن كلمة " أجمعون " أضفت على السياق دلالة التأكيد سواء امتزجت بدلالـــة الحالية أم لم تمتزج ؛ لأن هذه الدلالة واردة من طبيعة خلق الملائكة في امتثال الأمر وعدم المعصية فهم ﴿ لا يَعْصُون اللّه ما أمرهم وَيَفْعَلُون ما يُؤمَـــرُون ﴾ (٤) . وتبدو المبالغة في مدى بلوغ إبليس أقصى العصيان وقمة الـــرفض ، إذ زوال الـــتمرد في الوقت الذي امتثل فيه لأمر الله خيرة خلقه وصفوة عباده وهم الملائكة .

---

(١) الحجر/ ٣٠ ، ٣١ .

(٢) البرهان ٣ / ٤٩ .

(٣) البحر المحيط ٥ / ٤٤٢ .

(٤) التحريم/ ٦ .

ومن هنا تتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الأسلوب الخبري الفني أيا كـــان نوعـــه لا يخلو من جمال ، حيث لا يقف المتذوق لأسلوب القرآن عند حـــدود دلالـــة الكلمـــة المباشرة ، بل يفتّق ما في داخل الكلمات من شحنات معـــنوية وفكرية ، تثري الأبعاد الجمالية ، وما تحفل به الصياغة اللغوية من مضـــامين ســـخية يعيها المتلقي بفطنته ودربته ، ومن التعميم المرفوض أن نحكـــم على أسلوب بعينه أنه يخلو من جمال أو ينأى عن حقل البلاغة ، أو يخرج من دائرة فن القول .

إن الخبر بوظيفته التقليدية النمطية مجاله الكتابات العلمية والإحصائية والرياضية التي تهدف إلى توصيل المعارف ، ونقل الحقائق بطريقة واضحة منضبطة حيث يختار الكاتب الكلمات المحددة التي تحقق الفائدة أو لازمها ، أمـــا القـــرآن الكريم فإنه يمثل أعلى النظم وذروة التعبير وكل أسلوبه بليغ ، وجميع ما ذكرت في الفصل من نماذج إنما هو غيض'' من فيض ورشفة'' مـــن بحر ، وحسبي أن أكون قد لمست بعض عجائبه ونكت بدائعه ، ولفتات فرائده .